النفس
فى القرآن

الدكتور
محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

راجعه وخرج أحاديثه
د. محمد محمد العاصى
المدرس بجامعة الأزهر

رقم الايداع	٢٠٠٢/٣٧٢٦

مطبعة التوحيد الحديثة
بشبين الكوم ت : ٠٤٨/٣١٥٤٢٠
الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مقدمة

هذا الكتاب .. ليس إبحارا فى عمق النفس الإنسانية إرادة كشف أسرارها .. ولكنه : وقفات أمام محكم الآيات .. لنرى كيف **تتحدث عن النفس** فى :

قوتها .. وضعفها ..

فى شهوتها .. وعفتها ..

فى سخطها .. ورضاها ..

فى إيمانها .. وكفرها

ماهى ردود أفعالها أمام الناس والأحداث ؟

إن صانع السيارة هو أدرى الناس بدقائقها .. وطرق تسييرها .. وكذلك -ولله المثل الأعلى - فإن الله تعالى .. لما كان هو خالق الإنسان .. فهو الأعلم به..

فالكتاب إذن .. تأملات فى آى القرآن الكريم .. وهو فى نفس الوقت **محصلة برنامج «النفس فى القرآن»** والذى يقدمه **الأستاذ «رأفت عواد»** عبر **إذاعة القرآن الكريم** .. بعد منتصف الليل .. وفى أيام معدودات.

وربما لا يكون استطرادا أن نقول :

إن بعض مقدمى البرامج .. يعدون أنفسهم محظوظين حين يتخيرون لبرامجهم مواقيت .. يكون الناس فيها أيقاظا .. يستمعون إليهم ..

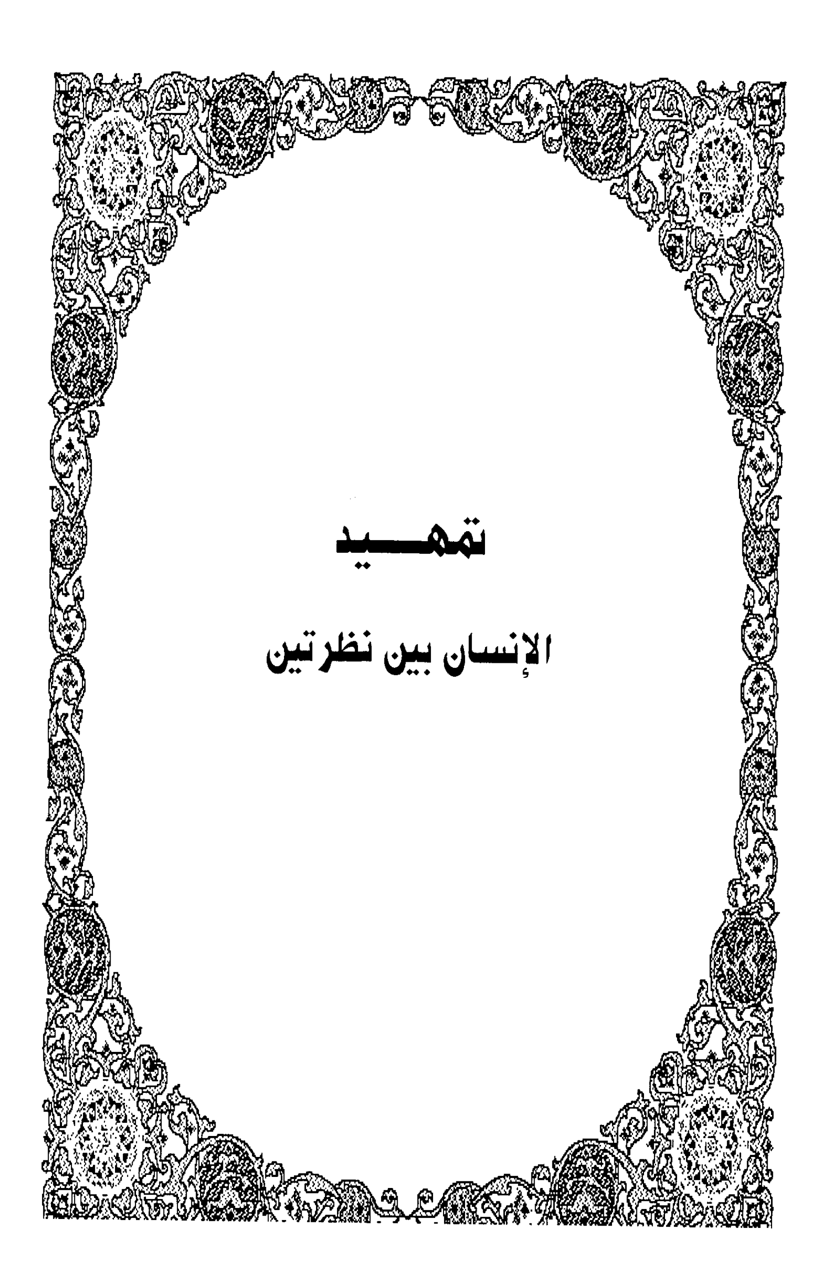
ولكن هذا البرنامج الذى طُوح به بعيدا .. من بركته أن يستقبله زاهد .. عابد .. راكع وساجد .. فى الليل إذا عسعس !

وربما كانت له دعوة مستجابة فى هذا الوقت الخصيب .. وقت السحر .. وهو أثمن جوهرة فى اليوم والليلة .. يضيعها الناس : استغراقا فى النوم .. أو فى اللعب!

ومن بركته أيضا أن يتحول إلى هذا الكتاب الذى نرجو أن يكون فى ميزان حسناتنا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا.

د. محمود محمد محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر



تمهـــيد

الإنسان بين نظرتين

خلق الإنسان فى القرآن

﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا إن الله عليم قدير.

والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾(١)

تمهيد:

سورة النحل سورة مكية.

وهى كغيرها من السور المكية تعنى بأصول العقيدة :

الألوهية . والوحى . والبعث .. وما يتصل بها من قضايا .

وهى بجرسها الهادئ :

توقظ النوام . وتنبه الغافلين .. ليستشعروا جلال القدرة . وشمول العلم .. المقتضى للفعل بالاختيار المحقق للبعث.. وصولا بالعباد إلى إيمان بالله تعالى وثيق .. بأسلوبها الذى (يتجه إلى العقل الواعى. كما يتجه إلى الوجدان الحساس .. تخاطب العين .. لترى ..

والأذن لتسمع ..

والوجدان .. ليتأثر

والعقل ليتدبر) كما يقول صاحب الظلال.

وفى هاتين الآيتين :

تسوق السورة فى الآية الأولى دليلا مشتقا من النفس الإنسانية ..

وفى الثانية تقدم دليلا من واقع المجتمع :

---

(١) النحل : ٧٠ - ٧١.

أما آية : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم .. ﴾

فإنه تعالى يذكرهم بأطوار النفس الإنسانية .. فلعل ذلك أن ينبه النفس إلى ضعفها .. وضرورة العودة إلى بارئها .. متحررة من سجن الهوى الذى حرمها من رؤية دلائل الحق تصرخ فيها من داخلها ...

والآية الكريمة :

تشير (إلى بعض ما فى أنفسهم من الأدلة - على قدرة الله تعالى وعلمه - مذكرة إياهم :

بمراتب العمر الأربع :

وهى سن الطفولة والنمو.

ثم سن الشباب الذى يكون عند انتهائه الوقوف .

ثم سن الكهولة .. وفيه يكون الانحطاط . مع بقاء القوة.

ثم سن الانحطاط . مع ظهور الضعف وهو الشيخوخة .

مضمنا ما لا يغنى عنه دواء .. حثا على التفكير فى آياته . والتعقل لها . قبل حلول ذلك الحادث . فيفوت الفوت .. ويندموا . حيث لا ينفع الندم)[1].

والآية الكريمة تتوخى غاية محددة هى :

إثبات طلاقة القدرة الإلهية .

وشمول العلم .

والتنزه عن كل نقص .

ومن ثم جاء نسقها ليحقق هذه الغاية :

فجهل الإنسان مستمر حتى موته .

---

(١) تفسير البقاعى.

ثم هو فى تقلبه (لا ينفع فيه دواء . ولا تجدى معه حيلة)

فلا يؤخر الصغير ولا يقدم الكبير

والنتيجة :

ضرورة المبادرة إلى التفكير . ثم الاعتبار) قبل حلول النهاية. التى تنتظركم .. وعند مجيئها لا تستطيعون ردها.

تبسيط الدليل :

وبعيدا عن الصياغة المنطقية .. يحاول المفسرون تبسيط معانى الآية الكريمة ..تجلية للحق فيها ..

يقول الرازى :

(هذه الآية الكريمة .. كما تدل على وجود إله العالم : الفاعل المختار .. فهى أيضا تدل على صحة البعث والقيامة : وذلك .. لأن الإنسان كان عدما محضا .. فأوجده الله تعالى . ثم أعدمه مرة ثانية .

فدل هذا على : أنه لما كان معدوما فى المرة الأولى .. وكان عوده إلى العدم فى المرة الثانية جائزا .. فكذلك :

لما صار موجودا .. ثم عدم .. وجب أن يكون عوده إلى الوجود فى المرة الثانية جائزا.

وأيضا : كان ميتا . حين كان نطفة . ثم صار حيا . ثم مات. فلما كان الموت الأول جائزا .. كان عود الموت جائزا .. فكذلك :

لما كانت الحياة الأولى جائزة .. وجب أن يكون عود الحياة جائزا فى المرة الثانية .

وأيضا : الإنسان فى أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئا . ثم صار عالماً عاقلاً فاهما.

فلما بلغ أرذل العمر .. عاد إلى ما كان عليه فى زمان الطفولية . وهو عدم العقل الذى حصل ثم زال .. فوجب أن يكون جائز العود فى المرة الثانية .

وإذا ثبتت هذه الجملة .. ثبت أن الذى مات وعدم .. فإنه يجوز عود وجوده . وعود حياته . وعود عقله مرة أخرى.

ومتى كان الأمر كذلك .. ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق والله أعلم).

القاعدة .. والاستثناء

وسنة الله فى الإنسان أن يكون كهذا القمر :

يبدو خيطا رقيقا .. ثم يتخطى مراحل النمو ليكون بدرا .. ثم محاقا .. وكذلك الإنسان :

يتخطى مراحل العمر : طفلا .. فصبياً .. ثم يسوى بعد ذلك رجلا .. ثم تجنح حياته إلى الضعف .. فيرد إلى أرذل العمر .. ليعود كماكان من قبل : طفلا..

وقد اختلف العلماء فى تحديد مرحلة أرذل العمر .. فقيل هى : خمس وسبعون سنة.

وقال قتاده : تسعون سنة.

وقال العلماء :(١)

وهذا ليس فى المسلمين .. والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى . ولا يجوز أن يقال فى حقه إنه يرد إلى أرذل العمر. والدليل عليه قوله تعالى ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (٢) فبين تعالى : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما ردوا أسفل سافلين.

---

(١) الرازى.

(٢) الآية ٥ ، وجزء من الآية ٦ ، سورة التين .

وقال عكرمة :

من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

ويعنى ذلك :

احتفاظ المسلم بلياقته العقلية حتى سن التسعين .. بل إنه لا يصيبه الخرف أبدا .. وبخاصة أولئك الذين صحبوا القرآن الكريم ..

صحبوه .. لا قراءة فقط كما يفيد قول عكرمة .. وإنما درسوه .. وفهموه .. ثم مارسوه عملا صالحا جدد الله به حياتهم .. التى جدد الله تعالى بها الحياة نفسها.

وإذن فكل محاولة لتنحية الشيوخ .. والتنكر لخبرتهم وطاقاتهم بعزلهم عن قافلة العلم .. هذه المحاولة جائرة .. لأنها تحرم الأمة من عقلها.

أصــل الأصــول

ثم يقول تعالى ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ :

(إن الطبيعة - الإنسانية - جاهلة . لاتميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة.

أمـا إله العـالم . ومـدبره . وخـالقـه . فـهـو الكامل فى العلم . الكامل فى القدرة:

فلأجل كمال علمه .. يعلم مقادير المصالح والمفاسد.

ولأجل كمال قدرته .. يقدر على تحصيل المصالح . ودفع المفاسد)(١).

ولما ذكر سبحانه المفاوتة فى الأعمار .. وكيف كانت إلى علم الله تعالى وقدرته لا إلى الطبائع كما قال الماديون ..

لما ذكر ذلك .. أتبعه بالدليل الذى يشكل سُنة اجتماعية فقال سبحانه :

﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ... ﴾ الآية ٧١ من سورة النحل.

وفى تسلسل منطقى ينتقل السياق من ذكر دلائل الحق فى عالم الجماد وعالم الحيوان .. إلى عالم الإنسان : وعلى مستوى النفس .. وعلى مستوى المجتمع .. وما يعج به الاجتماع من فروق ومفارقات وتفاضل :

ولما كانت وجوه التفضيل كثيرة . وكان التفضيل فى المعاش - الذى يظن الإنسان أن له قدرة على تحصيله - .. لما كان الأمر كذلك .. كانت المفاوتة فيه أدل على تمام القدرة والفعل بالاختيار الذى السياق له. قال تعالى ﴿ فى الرزق ﴾.

مجالات التفاوت

والتفاوت بين البشر مجالاته فسيحة :

فى الذكاء .. والبلادة

---

(١) الرازى.

والصحة .. والمرض

والحسن .. والقبح

والعقل .. والحمق

والغنى والفقر ..

يقول الرازى مبسطا هذا الدليل المنبثق عن اختلاف الناس فى درجات الرزق :

(اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان (النفس) : وذلك أنا نرى أكيس الناس . وأكثرهم عقلا وفهما .. يُفنى عمره فى طلب القدر القليل من الدنيا .. ولا يتيسر له ذلك.

ونرى أجهل الخلق . وأقلهم عقلا وفهما .. تنفتح عليه أبواب الدنيا .. وكل شئ خطر بباله .. ودار فى خياله . فإنه يحصل له فى الحال . ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله .. لوجب أن يكون الأعقل أفضل فى هذه الأحوال.

فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيبا . وأن الأجهل الأخس .. أوفر نصيبا علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام . كما قال تعالى :

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾[١]

قال الشافعى :

ومن الدليل على القضاء وكونه ∴ بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق) أ.هـ

قال أبو بكر بن الأنبارى :

حدثنى أبى قال :

بعث سليمان المهلبى إلى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم.

وطالبه بصحبته :

(١) الزخرف : ٣٢.

فرد عليه المائة ألف .. وكتب إليه هذه الأبيات :

أبلغ سليمان : أنى عنه فى سعة

وفى غنى .. غـير أنـى لست ذا مـال

الرزق عن قدر : لا العجز ينقصه

ولا يـزيدك فيـه حـول محتـال

والفقر فى النفس لا فى المال تعرفه

ومثل ذاك الغنى . فى النفس .. لا المال

لمن الخطاب ؟

والخطاب فى الآية الكريمة للناس جميعا .. ويتجه إلى المشركين اتجاها أوليا .. فهو يقول لهم :

إن الرازق هو الله تعالى .. وأن السعادة والنحوسة منه تعالى وحده :

الموالى .. والمماليك .. أنا رازقهم جميعا (فهم فى رزقى سواء . فلا يحسبن الموالى أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئا من الرزق.

وإنما ذلك رزقى أجريته إلى العبيد .. على أيدى الموالى)[1].

إن الله تعالى يرزق الجميع .. لا الأغنياء فقط .. والأغنياء ماهم إلا قنوات يجرى الله عن طريقها الرزق إلى عبيدهم .. ولا مكان هنا للغرور .. فمهما تكن ساعتك .. من نحاس أو ذهب . فإنها لن تزيد على ستين دقيقة !

يقول واحد من علمائنا :

(كان بعض الملوك يسير .. والنجائب بين يديه ومن خلفه .. وما كان يمكنه ركوب واحد منها.

---

(١) الرازى.

وربما حضرت الأطعمة الشهية . والفواكه العطرة عنده . وما كان يمكنه تناول شئ منه.

وكان الواحد منا صحيح المزاج . قوى البنية . كامل القوة . وما كان يجد ملء بطنه طعاما.

فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير فى المال. إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك فى الصحة والقوة.

وهذا باب واسع : إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه منه)

وقد نرى الغافل رخى البال .. بينما العاقل ردى الحال !

ونقول :

إن من شأن تحقق الاعتبار بهذا الباب أن يزيد المرء يقينا بأن الأمر كله لله تعالى .. وهو المطلوب.

والمطلوب هنا . كما يقول البقاعى :

(فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . وأقبلوا بجميع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار . والاعتبار).

وقد كان من سلفنا الصالح من وعى هذا الدليل فتعامل مع الدنيا على أساسه:

قال ابن أبى عمر :

(كنا عند سفيان بن عيينة . فذكروا الفضل بن الربيع ودهاءه. فأنشأ سفيان يقول :

كم من قوى قوى فى تقلبه

مهذب الرأى عنه الرزق منحرف

ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط

كـأنه مــن خـليج البـحر يـغترف

وإذا كـان واقـعكم المشـاهد يؤكـد أنكم لا تقـسـمـون أرزاقكم على عـبـيـدكم لتكونوا فيها جميعا سواء .. بل تضنون بأموال هى من الله على عيال الله تعالى ..

إذا كان الأمر كذلك .. فإن هذا الواقع يدينكم بالظلم .. حين تشركون مع الله غيره فى العبادة .. فتجيزون فى حقه تعالى ما تحرمونه على أنفسكم ..

ألا وإن تصرفكم هذا الأحمق لن يغير من الواقع شيئا .. فالحق ثابت لا يتغير .. وكل ما تفعلونه إنما هو «جحود» : إنكار لحقيقة ثابتة .. تحاولون طمس معالمها بعنادكم .. لكنكم واهمون :

﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[1]

---

(١) الرعد : ١٧.

الإنسان بين نظرتين

قبل الإسلام .. كان الإنسان ترسا فى آلة .. أو ضائعا فى غابة .. يهيم فى الأرض حيران .. بلا دافع .. إلا دافع الغريزة .. ولا غاية إلا أن يشبع نهمته ويملأ معدته ! منفلتا من قيود الإنسانية .. مع القطيع الشارد .. لا يمكنه الاندفاع المحموم من النظرة المستوعبة فلعله أن يغير وجهته .. ويحترم إنسانيته ..

يشير إلى هذا قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية : إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومع تقدم الإنسانية المذهل .. فقد بقيت هذه النظرة المادية للإنسان سارية المفعول .. بل صارت لها مؤسسات تعليمية تتبنى هذه الوجهة الخاطئة ..

فإذا سألتهم عن الإنسان :

ما هو ؟ وماهى وظيفته ؟ وماذا لديه من إمكانات .. وكيف يستثمرها ؟

لئن سألتهم هكذا .. أجابوك :

إنه ذلك المخلوق المحكوم بغرائزه .. من أجل إشباعها .. وهو بين بيئته .. الاقتصادية أو الاجتماعية .. تشكله كيف تشاء .. معزولا عن خالقه سبحانه وتعالى ..

أى أنهم كما قيل :

(وقفوا به عند حدود جسمه . ففسدوا وأفسدوا وتدافعوا أمما وأفرادا على طريق الشقاء)

وعلى هؤلاء جميعا يرد القرآن الكريم بمثل قوله تعالى :

﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [١].

---

(١) الروم :٦، ٧ .

**

وكما يقول العلماء :

إن العلم علمان :

١- علم تفاعلات المادة .. وآثارها . وأصول النفس الإنسانية .

٢- وعلم الآخرة الموصل إليها.

والإسلام يحرص على تحصيل العلم الأول ..

لكنه يعيب على من وقف عند حدوده لا يتجاوزها.

ومن هنا كانت **إجابة الإسلام** عن : ماهو الإنسان .. هى الإجابة الشافية الكافية :

إن الإنسان هو صاحب الفطرة السليمة :

والفطرة السليمة تعنى : عقلا مستنيرا . وقلبا سليما . وإرادة صلبة.

١- عقلا مستنيرا :

يبحث عن الحق فى مظانه

ويحب من يحبون هذا الحق ..

ثم يعتنقه إذا ظهر ..

يرفض الخرافة ..

يقف بالظنون عند حد ..

ثم لا يجمح به الخيال ذات اليمين وذات الشمال . ليضع ناسا تحت .. وناسا فوق .. هكذا بلا دليل .. بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

٢- وتعنى الفطرة ثانيا :

قلبا سليما :

يحب لغيره ما يحب لنفسه

لا يخون ..

ولا يغدر ..

ولا يلتمس للأبرياء العيب ..

ثم لا يهجر أخاه فوق ثلاث ..

٣- وتعنى الفطرة السليمة ثالثا :

إرادة ماضية على طريق الحق .. لا تساوم عليه ولو دفعت حياتها ثمنا .. وحيهلاً بالموت .. ثم يبقى الحق أبدا.



الفصل الأول

آيات القرآن

ترسم سعادة الإنسان

- الخطوة الأولى على طريق السعادة.
- خطوة أخرى على الطريق.
- من بركات القرآن.
- من بركات التقوى.
- الرحمة المهداة.
- من واقعية الإسلام.
- أولادنا : بين التفوق والتوفيق.
- الحصن الآمن.

★ من خصائص المؤمنين :

- نؤمن بحكمته فنرضى بقسمته.
- رحماء بينهم.
- من ملامح المنهج الإسلامى فى معاملة الناس.
- وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب.
- حسن الظن بالله تعالى، وبالناس.
- المحافظة على البيئة.
- أهمية الإخلاص.
- الصبر.
- الإحسان إلى الفقير.



الخطوة الأولى على طريق السعادة

لا شئ يمنح الإنسان سعادته .. إلا نفسه التى بين جنبيه :

وإذن :

فالسعادة تنبع من داخلك .. ولا تهبط من فوق ..

إن واقع الحياة صارم .. وقد يفرض علينا أن نتحمل أكثر من طاقتنا .. وعندئذ .. فلن يجدى البكاء .. ولا التباكى ..

ولكنه الفرار من هذا الواقع المرير .. وهزيمة التبرير .. بالبحث عن الحل العملى..

وواجبنا الذى يفرض علينا أن نبدأ رحلة السعادة من الداخل .. من نفوسنا .. ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (١).

ولأن الإصلاح يبدأ بصلاح النفس أولا .. فإن الحق تعالى يقسم بها :

فقد سوى الله النفس :

بخلقها مستوية .. كاملة التركيب .. فى جانبها المادى .. فهى دليل على قدرته تعالى . وعلمه.

ثم يمنحها خاصية الفهم .. وإدراك أن هذا جميل .. وذاك قبيح .. ثم بالقدرة على الاختيار الحر .. فى جانبها المعنوى ..

ويعنى ذلك أن يتحمل الإنسان مسئولية اختياره .. بحسن استثمار هذه النعم .. التى جعلت منه بشرا سويا ..

---

(١) الشمس ٧ - ١٠.

والحق سبحانه وتعالى يعين النفس على الصعود .. بالترغيب (قد أفلح من زكاها)

ثم الترهيب (وقد خاب من دساها)

زكاها : زكاها بالطاعة فصارت زكية .. صالحة .. مثمرة .. مفلحة ..

وقد خاب من دساها :

أخمدها .. أخفى مكانتها بالمعصية .. طمس استعدادها للخير الذى فطرت عليه..

إنه كهذا البخيل الذي يخفى منزله .. ومتاعه .. وماله ..

أما المزكى :

فهو ذلك السخى الذى يبرز منزله .. فيبنى داره على الربوة القائمة .. حتى لا يستتر عن الضيفان .

جاء فى أضواء البيان تأكيدا لأهمية النفس وخطورتها سلباً وإيجاباً :

(وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب . كالآلة الحاسبة والعقل الإلكترونى :

فإنها لا تخطئ كما يقولون . وقد بهرت العقول فى صفتها.

ولكن :

بنظرة بسيطة نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر :

إنها أولا :

من صنع هذه النفس .. ذات الإدراك النامى .

والاستنتاج الباهر .

ثانياً :

هى لا تخطئ .. ولكن لأنها لا تقدر أن تخطئ . لأن الخطأ ناشئ عن اجتهاد

فكرى .. وهى لا اجتهاد لها . وإنما تشير وفق ما رسم لها . كالمادة المسجلة فى شريط :

فإن المسجل مع دقة حفظه لها . فإنه لا يقدر أن يزيد . ولا ينقص حرفا واحدا.

أما الإنسان :

فإنه يغير ويبدل . وعندما يبدل كلمة مكان كلمة .. فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى . أو لاختياره ترك الكلمة الأولى)[١].

والذى نركز عليه هنا هو :

نسبة التزكية .. إلى المكلف نفسه .. ليبدأ رحلة الفلاح بإصلاح نفسه أولا ..

فهو الذى يكون غافلا ..

وفجأة .. تقع صورة الشئ فى قلبه ..

ويترتب على ذلك ميل القلب إلى ذلك الشئ ..

ثم يترتب على هذا الميل : حركة الأعضاء وصدور الفعل.

ومغزى ذلك :

أن نهج القرآن فى إعداد النفس الإنسانية هو :

بناء الذات أولا .. وذلك قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [٢].

إن مجرد أمانى الإصلاح الحالمة لا تعطينا دقيقا ..

وإنما المطلوب : تغيير النفس .. والحكماء يقولون :

---

(١) ج ٩/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) المائدة : ١٠٥ .

غير نفسك .. تغير التاريخ !

ونذكر **من دروس أحد** أن القرآن الكريم قال فى تعقيبه عليها :

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها .. قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير ﴾ (١).

إنه يتفهم من دروس التربية القرآنية حسن التعامل مع السنن الكونية التى لا تحابى أحدا .. وأن النصر إنما يتنزل طبق قانون صارم .. لا يجامل ..

وعند الهزيمة ينبغى مراجعة الربح والخسارة .. وأن من مظاهر الهزيمة أن نبحث عن أسبابها خارج الذات ..

وإنما هى « من عند أنفسكم »

أنتم الذين مهدتم لها بالغفلة عن سنن الله تعالى فى تدبير الكون .. فكان ما كان .

﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ (٢).

يقول صاحب الظلال :

والآية الكريمة (قد أفلح من زكاها ..)

تلقى على هذا الكائن تبعة مصيره . وتجعل أمره بين يديه .. وفى إطار المشيئة العليا ..

وتشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة.

ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه . كى لا يقوده الهوى إلى التهلكة . ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه. وبذلك يظل قريبا من الله ..

---

(١) آل عمران : ١٦٥ .

(٢) النساء : ١٢٣ .

يهتدى بهديه . ويستضئ بالنور الذى أمده به فى متاهات الطريق.

ومن ثم :

فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها . وهو يغتسل فى نور الله الفائض .. ويتطهر فى هذا العباب الذى يتدفق حوله من ينابيع الوجود [١].

إذا كان إصلاح النفس الإنسانية هدف المؤسسات التربوية .. فهل حققت هذه المؤسسات غايتها فاستقامت النفوس على سواء الصراط ؟ :

إن التربية الحديثة : تنمى القدرات .. كاشفة عن أسرار الإنسان .. لكنها لا تنمى الإرادة .. ولا تركز على المثل الأعلى ..

وفى المقابل : تذهب بعض مدارس التربية المتشددة إلى تنمية إرادة الخير .. ثم ربطها بالمثل الأعلى ..

ولكنها لا تنمى وبنفس القوة .. القدرة على الوصول إلى المأمول .. والنتيجة واحدة هى :

القلق .. والتمزق .. والحيرة ..

ولكن **التربية القرآنية** فى تربيتها للنفس الإنسانية مضمومة على كل العناصر اللازمة لصياغتها .. متحررة فى نفس الوقت من كل ما تورط فيه الماديون .. أو الحالمون .

فهى تركز على المثل الأعلى .. والذى تجليه بين يديها .. ثم تربط طاقة النفس بهذا المثل الأعلى ليكون من بعد عملا إيجابيا :

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

---

(١) تفسير سورة الشمس.

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا .

المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ الكهف ٤٥ - ٤٦ .

إن هدف السياق القرآني هنا هو :

الارتفاع بالإنسان إلى أعلى .. فوق جواذب الأرض إلى المثل الأعلى هناك .. خلف النجوم .

وهو المقصود بقوله تعالى :

﴿ والباقيات الصالحات .. ﴾

والباقيات الصالحات هي :

(كل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله . وبمحبته . وخدمته . فهو الباقيات الصالحات .

وكل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك)[١] .

ومن أجل الارتفاع بالنفس الإنسانية إلى هذا الأفق العالي تجئ الآية الأولى كاشفة عن تفاهة الحياة وسرعة تقضيها .. لتغير اتجاهها آخذة سبيلها إلى العمل الصالح .. الباقي :

وكما يقول الرازي :

(فالله تعالى يكون النبات أولا . ثم ينميه وسطا .. ثم يبطله آخرا .. وأحوال الدنيا أيضا كذلك :

تظهر أولا في غاية الحسن والنضارة .. ثم تتزايد قليلا .. قليلا ثم تأخذ في

---

(١) الرازي.

الانحطاط . إلى أن تنتهى إلى الهلاك والفناء . ومثل هذا الشئ ليس للعاقل أن يبتهج به)[١].

ثم تأتى الآية التالية لتدفع بالمسلم دفعة أخرى فى اتجاه المثل الأعلى :

فالمال والبنون .. زينة الحياة الدنيا ..

ومن أجل ذلك .. تكون لهما جاذبية تخلد بالإنسان إلى الأرض .. لكن العاقل يتفكر .. ليستأنف صعوده إلى أعلى :

فإن المال والبنين .. من نعيم الحياة ..

والحياة سريعة الانقضاء .. وإذن .. فهما سريعا الانقضاء والانقراض .

(ومن المقتضى البديهى - كما يقرر الرازى - أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به . أو يفرح بسببه أو يقيم له فى نظره وزنا).

إن القرآن الكريم لا يفطم النفس عن مناعم الدنيا كلية ..

وكيف .. والناس أبناء الدنيا .. فكيف يلامون على حب أمهم الدنيا ؟ لكن القرآن الكريم يثير فيهم الإحساس بمتعة أربى .. وبجمال أروع من جمال الأشياء .. هو جمال الفضيلة .. إيثارا بالسعادة الآخرة لأنها عقلية .. فهى أشرف من الحسية .. المادية .

ومن المقبول والمعقول فى منطق الإسلام أن يكون الإنسان سعيدا فى دنياه . وفى أخراه .. فى نفس الوقت .. لو اتخذ من السعادة الأولى سبيلا إلى السعادة الكبرى هناك فى الآخرة ..

ولا يقف منهج الإسلام فى ربط النفس بالمثل الأعلى عند هذا التوجيه .. ولكنه يلاحق الإنسان .. بالنموذج .. بالقدوة التى تجسد بين يديه الفضيلة متمثلة فى إنسان مثله .. ليكون مسك ختام الرحلة الالتزام .. بما أمره به الإسلام مع العلم

(١) نفس الموضع.

: بأن القدوة لا تخلف الاستعداد .. فهو موجود ولكنها تنميه وتزكيه .

ونقرأ في ذلك قوله تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [١].

إن الصاحب كما يقولون : ساحب .. ساحب صديقه إلى البوار .. أو إلى النجاة ..

وإذ يتبادل الأصدقاء الأشرار التهم يوم القيامة .. إذا بالصحاب الأبرار بنجوة من هذا الهوان يقول لهم ربهم :

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾[٢].

لقد كان من توجيهات الإسلام :

لا تصاحب إلا مؤمنا .. ولا يأكل طعامك إلا تقى .

إنه الصاحب :

الذى له قيم أصيلة .. تصونه .. فلا يهبط ..

ومعارج إلى الكمال .. يصعد فيها ليتسنم ذروة هذا الكمال .. ومن خلاله .. وفى تصرفاته .. يلوح المثل الأعلى .. ثم تتجه الإرادة نحوه عاملة آملة.

صاحب :

هو أتقى منك .. لتظل فى صحبته شاعرا بالنقص .. فلا تكف نفسك عن محاولة اللحاق به ..

وليس هو بالأقل منك طاعة .. فتغتر برؤيته .. فتفتر عن العبادة ..

---

(١) الزخرف ٦٧ .

(٢) الزخرف ٦٨ - ٧٠.

وصدق القائل :

قد أفلح من أفلح .. بصحبة من أفلح ..

إنه الفلاح .. وليس النجاح ..

فأنت بالنجاح .. تحصل على الدرجة المطلوبة ..

ولكنك مع هذا .. قد لا تحصل على الوظيفة ..

لكن الفلاح هو : الفوز .. الفوز بالمرغوب ..

وهل يسمى الفلاح فلاحا لمجرد أنه يحرث الأرض ؟

لابد من حرث .. وبذر .. ومتابعة ..

وفى غيبة ذلك لا زرع .. ولا مزارعة .

خطوة أخرى على طريق السعادة

يقول صلى الله عليه وسلم :

(والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[١].

تمهـــيد

يقول النيسابورى :

(الإيمان الحقيقى ليس بمجرد التصديق والإقرار.

ولكنه سيضرب على محك الاختبار وهو :

تحكيم الشرع .. لا الطبع .

والنبوة .. لا البنوة .

والمولى .. لا الهوى.

ووارد الحق .. لا موارد الخلق .. فيما اختلفت فيه آراؤهم . وتحيرت عقولهم) .

وإذا كان إيمان المؤمن لا يتم إلا بحب الرسول صلى الله عليه وسلم .. فإنه لا يكمل إلا إذا كان هوانا .. وكانت أمزجتنا مرتبطة بما جاء به الرسول .. بمعنى أن الحب لا يكفى وحده .. بل لابد أن يعبر هذا الحب عن نفسه باتباع سنته ..

بل بأن يكون هذا الاتباع صادرا عن رغبة فيه .. وشوق إليه ..

وخير مثال على هذا المعنى :

ذلك العابد الذى واظب على عبادة ربه .. بقلب مشوق .. حتى خشى فى النهاية ألا يثاب على عمله .. لأنه لم يحس معه بمعاناة ..

وقد قال علماؤنا :

---

(١) أخرجه البغوى فى شرح السنة ٢١٣/١ ، وذكره ابن حجر فى الفتح ٢٨٩/٣ وعزاه إلى الحسن بن سفيان.

هو الحضور مع الحق والتعلق به .. حتى عند هيجان الشهوة .. حتى قال بعضهم : إنى لا أغيب عن الله سبحانه .. ولو كنت مع زوجتى !!

الحب وحده لا يكفى :

مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضى الله عنه مرتين :

(يا معاذ : والله إنى لأحبك ..)(١).

إلا أنه وصاه وهو ذاهب إلى اليمن قائلا :

واتق دعوة المظلوم ..(٢)

ويعنى ذلك أن حبه للرسول .. وحب الرسول له .. لن يحميه من عقاب الظلم .. لو أنه ظلم ..

وقصة الرجل الذى كان يجاء به إلى الرسول مخمورا ليقام عليه الحد .. وقد نهاهم صلى الله عليه وسلم عن لعنه .. لأنه ما علمه إلا أنه يحب الله ورسوله (٣) :

فحب الرجل لله وللرسول .. لم يمنعه من معصيتهما ..

كما وأن حب الرسول له .. لم يمنعه من إقامة الحد عليه .. فلا شفاعة فى حد من حدود الله تعالى.

فى مجال التطبيق :

لقد كانت طاعة الرسول فوق هوى الإنسان .. مهما كان الهوى غلابا :

قال عبدالله بن عبدالله بن أبى لما آذى رسول الله :

يا رسول الله : والله ما ملأت عينى منه .. هيبة له.

ولكن لو أمرتنى بقتله .. لقتلته !.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ،كتاب الصلاة ، ٢/٨٧ ، حديث رقم ١٥٢٢.

(٢) البخارى : كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فى الفقراء حيث كانوا[٣/٣٥٧ من الفتح - رقم ١٤٩٦]

(٣) أوردها البخارى فى صحيحه ، (١٢/ ٥٧٠ من الفتح).

وهكذا .. وبالإيمان يقتحم الابن العقبة .. مؤثرا هوى الحق على هوى نفسه..

وأصعب من ذلك أن تتجاهل غريزة الأبوة أو الأمومة مع نشوبهما فى كيان الآباء والأمهات .. إيثارا للحق على موارد الخلق :

لقد سمعت المرأة أن عدم تصدقها بزكاة الأسورتين فى يد ابنتها سيحولهما نارا تلظى ..

ولم تكد تسمع الإنذار .. حتى تصدقت بهما معا :

تصدقت بهما .. لا عنهما ..

وهان عليها أن تخلعهما خلعا من يد ابنتها على ما فى ذلك من صعوبة على بنت كان الذهب جزءا من كيانها.

بائعة التفاح :

رفضت بائعة التفاح خمسة ملايين من الجنيهات .. عرضت عليها نظير تصويرها عارية ..

لقد لقنت المتاجرين بشرف الإنسان .. أنه لا شئ أغلى من هذا الشرف ..

وقبلها ولنفس السبب رفض السلطان عبدالحميد خمسة ملايين من الجنيهات الذهبية مقابل السماح لليهود باستيطان فلسطين .. وقد أحس اليهود بعقدة النقص .. فسخروا كل إمكاناتهم لتحقيق غرضهم ..

وأعظم من الاثنين معا :

تلك الصحابية الجليلة .. والتى رضت بآلام العلة تنهش عمرها .. لكنها لم ترض أن تنكشف عورتها كلما داهمتها العلة .. فطلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بألا تنكشف .. وإن بقيت العلة تسرى فى بدنها ..

وتجوع الحرة .. ولا تأكل بثدييها !

***

لا مساومة على الحق

إنه لا واسطة هنا :

فإما أن تكون مع الحق .. أو عليه !

وقد حسم صالحو أمتنا القضية إلى حد أن أحدهم ينكر على من عزاه فى وفاة ولده .. كيف غاب عنه أن يعزيه فى فوت العشاء .. فلم يصلها جماعة .. وفى المسجد !

وعلى هذا الأساس .. وفرارا من هوى النفس قرر علماؤنا :

أن من حلف بالله كاذبا .. خير ممن حلف بغيره صادقا :

لأن فى الثانى شركا .. واتباع هوى النفس ..

وأن من فسر آية برأيه .. آثم .. حتى لو جاء تفسيره صحيحا ؟!

ومن هنا قالوا تربية للنفوس على التحرر من الهوى :

لا تقل فعلت كذا وكذا

ولكن قل :

وفقنى الله تعالى للطاعات ونجانى من المعاصى ..

لأن ذلك إسناد للأمر إلى صاحب الأمر.

ولله در ذلك الفتى الذى حمل سلاحه ذاهبا إلى المعركة فسمع أمه تدعو له قائلة :

ردك الله إلينا سالما

فقال لها يا أمى :

اسمحى لى أن أقول لك كلمة .. لم أقلها لك أبدا .. ولكنى مضطر أن أقولها اليوم .. لأول مرة .. ولآخر مرة أيضا :

أقول لك :

إنك بخيلة !!

تبخلين على ولدك بالشهادة ؟

قولى يا أماه :

اللهم ألحقه بالشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ..

ولله در معن بن عدى رضى الله عنه :

فعندما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم .. بكاه الصحابة بكاء مرا ..

لكن «معنا» لم يبك ..

فلما سألهم عن سر بكائهم قالوا :

نخشى أن نفتن بعده ..

فقال لهم :

أما أنا .. فكم كنت أود أن أعيش بعده .. ليعلم أنى أطعته حيا .. وأطعته ميتا !!

من بركات القرآن

﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ الإسراء - ٨٢.

إذا كانت نفحة العطر تنعش الوجدان لدى الإنسان .. فإن هذا العطر نفسه .. تستنشقه حشرة الجُعل .. فتموت فور استنشاقه !

وهكذا البشر مع القرآن :

فالقرآن.. جميعه - كله - شفاء ..

ولكن لا ينتفع به إلا المؤمنون .. الذين استجمعوا بالإيمان صلاحية الشفاء..

أما غيرهم .. فلا يزيدهم إلا خسارا ..

فالعيب فيهم .. لا فى القرآن ..

نعيب زماننا والعيب فينا ..

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرا به الماء الزلالا

وما ذنب طبيب حاذق .. مجرب .. أمر المريض بتناول دواء .. فلم يستعمله؟!!

وهل سمعت عن دواء قد اقتحم نفس إنسان مريض ليفرض عليه الشفاء رغم أنفه ؟!! ذلك ما لا يكون

وهكذا البشر فى علاقتهم بالقرآن.

إن جيد الطعام ورديئه سيان .. فكلاهما يشبع الإنسان .. لأن العافية هى التى تطيب هذا الطعام ..

وإذا كان الأمر كذلك :

فإن عافية الإيمان فى كيان المسلم تجعله من القرآن فى حقل بكر .. ينتقى أطايبه .. وكل ما فيه طيب ..

مجالات الشفاء

والقرآن الكريم شفاء من أمراض النفس وأمراض الجسم معا :

أما أنه شفاء للنفس :

فلأنه ينقى العقيدة من الوهم والخرافة .. ويصون الأخلاق من الفساد .. والسلوك من الانحراف ..

وأما أنه شفاء للجسم :

ففى القرآن من البركة ما يصلح الله تعالى به مزاجه ..

ثم هو ذكر : وبالذكر تطمئن القلوب .. والاطمئنان طارد للخوف .. فيسلم الإنسان من آفة تمتص عافيته .. ليظل بالقرآن صحيح الجسم .. موفور الطاقة ..

وإذا اعترف الفلاسفة (بأن قراءة الرقى المجهولة لها آثار عظيمة فى تحصيل المنافع ودفع المفاسد .. فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه سببا لحصول النفع فى الدين والدنيا .. تكون أولى ..)

و ﴿ من لم يستشف بالقرآن .. فلا شفاه الله تعالى ﴾

وأما كونه رحمة للمؤمنين .. فإن الأمر كما يقول الرازى :

(إن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة ..

والقرآن قسمان :

بعضه يفيد الخلاص عن شبهات الضالين. وتمويهات المضلين .. وهو الشفاء.

وبعضه : يفيد كيفية اكتساب العلوم العالية . والأخلاق الفاضلة . التى يصل بها الإنسان إلى جوار رب العالمين).

درس فى التربية

القاعدة الإسلامية تقول :

التخلية .. قبل التحلية ..

من أجل ذلك .. قدم الله تعالى الشفاء .. تطهيرا للنفس من عللها أولا .. وبعد ذلك يجئ تكميل موجبات الصحة .. مما يفرض على المربين ضرورة مساعدة الناشئ على التخلص من عاداته السيئة أولا ..

فإذا تم ذلك .. اتجه به المربى إلى حيث يريد له من كمال.

موقف الظالمين من القرآن

هذا هو أثر القرآن .. فى قلوب المؤمنين أما الذين ظلموا فوضعوا عقولهم وقلوبهم حيث أمرتهم شياطينهم ..

هؤلاء الذين لم يضعوا ملكاتهم فى موضعها فكان طبعيا أن يكون جزاؤهم من جنس عملهم : طمساً للبصيرة .. التى لم تعد صالحة لاستقبال واردات الهدى.

وإنما كان أمرهم كذلك :

(لأن سماع القرآن يزيدهم غيظا وغضبا وحقدا وحسدا .

وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة . وتزيد فى تقوية تلك الأخلاق الفاسدة فى جواهر نفوسهم . ثم لا يزال هذا الخلق الخبيث يحمل على الأعمال الفاسدة . مما يقوى تلك الأخلاق) [١].

وإذا كانت الحسنة لدى المؤمنين تستدعى الحسنة لتصير إرادة الخير ملكة وطبعا ..

فإن السيئة على الجانب الآخر تستدعى السيئة .. لتصير النفس بؤرة للشر والضلال ..

---

(١) الرازى.

طبيعة الجاحدين

وقد تحدث القرآن الكريم فى مواطن كثيرة كاشفاً عن هذا الفرق الهائل بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير وكيف يزيد المؤمنون بالقرآن إيمانا .. فى الوقت الذى يزيد به الكافرون كفرانا :

يقول تعالى :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[١].

وفى سورة فصلت يقول عز وجل :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ [٢].

بل إن الجاحدين يبذلون فطرة العناد فيهم حين يديرون ظهورهم للآيات البينات .. ثم يشغبون بما يثيرونه من شبه فى أدمغتهم إزاء الآيات المشتبهات ابتغاء الفتنة:

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [٣].

فانظر كيف كان زيغ القلوب ومرضها ما نعين من وصول الهداية إلى قلوب عليها أقفالها : من هذا الزيغ وهذا المرض.

---

(١) التوبة ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) الآية : ٤٤ .

(٣) آل عمران ٧ .

درس فى الدعوة

وهو درس فى الدعوة يثبت الله تعالى به أقدام الدعاة حتى لا يظنوا المدعوين ملائكة يستجيبون لهم ما داموا على الحق .. وليكونوا واقعيين .. يقولون كلمتهم ثم تنتهى مهمتهم .. فمن أحسن فلنفسه .. ومن أساء فعليها ..

أما بعد

فقد يسأل سائل :

ومع هذا فواقع أمة الإسلام اليوم يؤكد ضعف أمة القرآن .. بينما بأيديهم نوران :

ذكر وحكمة .. فما بالهم فى حالك الظلمات ؟

والجواب : أجل ذلك هو واقع المسلمين .. لكن الشفاء ممكن ..

إن الله تعالى لن يغير ما بهم .. حتى يغيروا ما بأنفسهم

من بركات التقوى

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٩٦- الأعراف .

يقول العلماء :

صحيح أن للظواهر الاقتصادية أسبابها العلمية ..

ولكن خالق هذه الأسباب يرد كل هذه الأسباب إلى أصلها الأصيل وهو :

الإيمان ..

وثمرته وهى : التقوى ..

ومتى أسفرت التقوى عن نفسها عملا صالحا مصلحا .. استنزل المؤمنون بها بركات .. من فوقهم .. من السماء :

فينزل المطر ..

ويتحقق الأمن من الصواعق

ومن الأرض يأمنون من الزلازل ..

ويكون الخصب .. بمضاعفة المحصول وحمايته من الآفات .. وهكذا فهم علماؤنا ..

وأهم هذه البركات جميعا :

توفيق الله تعالى قادة الأمم إلى الرأى السديد

والعمل الرشيد .. فيعمل الناس فى جو من الأمن

يوفر الطاقة لتظل مرصودة للبناء والتعمير . بدل الهدم والتدمير .

إن استتباب الأمن من أسباب اطمئنان القلوب ..

ومتى اطمأنت القلوب .. نشطت الجوارح للعمل الجاد المخلص ..

تحت رعاية ملك هو القلب .. فهو المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله..

وتذكر هنا قوله تعالى :

﴿ كذلك نقص عليه من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا .

من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ طه : ٩٩-١٠١

وإذن .. فإهمال الذكر سبب فى شقوة الأبد ..

وقبل ذلك : الشقوة فى الدنيا .. فإن الإعراض عنه سبب للضنك وسوء العيش .. بقدر ما يكون الالتزام به سببا للرخاء ..

يقول تعالى :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .

قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا .

قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ طه ١٢٤-١٢٧ .

وقد تبقى بقية من الشك فى قدرة التقوى على تحقيق الرخاء ..

ذلك بأن بعض الناس يفهمون التقوى معنى مبهما .. غامضا .. وأنى له أن يحقق الرخاء ؟!!

لكن التقوى من خلال آيات القرآن الكريم .. تبدو خصائص إيجابية عملية .. فى واقع الحياة ..

فالمتقون .. كرماء .. ينفقون .. ولا يبخلون ..

ثم إنهم صابرون ..

يكظمون الغيظ ..

بل ويعفون عن الناس..

ويعنى ذلك سلامة بنائهم العصبى .. وما يترتب عليه من قدرة على تحمل المهام الكبار ..

لقد استجمعوا بالصبر خميرة التقدم ..

فمناهج التربية فى العالم تقوم على فضيلة الصبر ..

وضبط النفس .. وهو ما تحلى به المتقون ..

وليست حضارة المادة على شئ بما تملك من بهرجة وعنف .. وحمق ..

لقد مر صلى الله عليه وسلم على قوم يتصابحون فلما سأل قالوا :

هذا رجل صرعة .. لا يواجه أحدا إلا صرعه ..

فقال صلى الله عليه وسلم .

(ليس الشديد بالصرعة [١] ..ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب)

---

(١) صرعة . مثل همزة . وأكلة .. من صيغ المبالغة والحديث فى صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب .

شهادة العلماء

وتأتى شهادة رجل العلم بعد شهادة رجل السياسة :

يقول رينان :

(من الممكن أن يضمحل كل شئ نحبه .. وأن تبطل حرية استقلال العقل . والعلم . والصناعة .

لكن .. يستحيل أن ينمحى التدين !

بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادى . الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة من الحياة الأرضية)

وإذا كان التدين بإطلاق .. هو القاعدة التى لا تقبل الزوال ..

فإن الإسلام هو الأجدر بهذا الوصف . بشهادة الأجانب أنفسهم :

فهذا ولى عهد بريطانيا يقول :

(الآن : بدأنا ندرك العواقب الوخيمة لاستسلامنا لتعاليم الحضارة المادية..)

ومن توصياته :

(تعلموا من الإسلام أيام رقية)

ثم يطالب بضرورة الاستعانة بالمعلمين المسلمين فى إعداد الشباب .

يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [1]

تمهيد :

كثيرة هى مناعم الحياة التى تستنزف طاقة البشر .. من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .. والخيل المسومة والأنعام والحرث .

وحبس مشاعر الإنسان على هذه الدنيا .. بحيث لا تمتد منه البصيرة إلى مآله فى غده .. عمل غير صالح .. وغفلة يأباها الإسلام .

ذلك بأن مسئولية المؤمن بالله واليوم الآخر تفرض عليه أن يرتفع فوق هذه الجواذب .. فلا يستغرق فيها .. مدركاذلك الغد الذى سوف ينظر المرء فيه ما قدمت يداه ..

وإذن .. فواجبه أن يعد الجواب من الآن .. عن ماله : فيم أنفقه .. ومن أين اكتسبه ..

وعن عمره فيم قضاه ..

إن جاذبية الغنى .. ونضارة الشباب ينبغى ألا تنسينا رهبة الموقف عندئذ ..

وإلا .. فالذين يمضون فى الحياة غافلين عن ذلك اليوم وما فيه .. هؤلاء الناس ميتون من الآن ..

وذلك قول الشاعر :

إذا كان فى موت الحياة مرارة ∴ فموت شعور المرء حيا .. هو المر !

---

(١) الحشر : ١٨.

وظيفة المؤمن

ولكن ما هو المطلوب من المؤمن بنص الآية الكريمة ؟

إنه : التقوى ..

التقوى .. بشقيها :

العمل .. طاعة الله تعالى .

ثم .. اجتناب المحارم

ولا تتحصل التقوى إلا بمجموعهما :

الطاعة .. والمشار إليها بصدر الآية الكريمة ..

ثم تجنب المحارم .. والمشار إليه بختامها :

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾

منهج الآية الكريمة :

إنها تأمرك بالنظر :

وليس هو النظر بالعين المجردة ..

وإنما هى البصيرة الكاشفة :

التى يفرض على المسلم وقفة يتأمل فيها حساب ربحه وخسارته :

يتأمل ..

ثم يستنبط ..

ثم يصدر حكمه .. ليأخذ قرار تعديل مسار حياته بعد ذلك ..

فيم ينظر الإنسان :

ينظر فيما قدم من عمل مضى .. محاسبا نفسه معاتبا .. على ما مر فى حياته من تقصير .

ومجئ الفعل «قدمت» بصيغة الماضى .. حث على الإسراع إلى العمل وتجنب التسويق .

لأنه لا يملك إلا ما قدم فى الماضى .. أما المستقبل .. فإنه لا يدرى ما الله صانع فيه .

وتلك هى مسئولية كل نفس .. كما يفيد تنكيرها ..

ثم إن المستقبل هنا « غد » .. بمعنى أنك منه قريب ..

بينك وبينه ليلة واحدة .. وإذن فلا مجال للتسويق ..

وذلك يعنى أن الدنيا على طولها .. وأن العمر على امتداده يوم واحد .. والآخرة هى غده ..

فلم يبق إلا أن تحزموا أمتعتكم من الآن .. استعدادا للسفر بتقوى الله تعالى مرتين :

اتقوه سبحانه .. مهاجرين فى سبيله مجتمعين على طاعته ..

ثم اتقوه ثانيا تقوى تمنحكم الإحساس بأنه تعالى أقرب إليكم من حبل الوريد

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾

الرحمة المهداة

يقول تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ التوبة ١٢٨ . ١٢٩ .

تمهيد :

من ملامح المنهج الإسلامى في التربية والدعوة .. أنه يأمر .. وينهى بما قد يشق على المكلف .. أو يراه المكلف كذلك ..

ولكنه تشفع ذلك بما يعين على الائتمار والانتهاء ..

وسورة التوبة حافلة بتكاليف .. تستنفر كل طاقة المسلم ليكون على مستوى إسلامه .. عطاء ووفاء .

من أجل ذلك .. ومن تمام المنهج الإسلامى وكماله أنه بعث بهذه التكاليف رسولا استجمع من الخلال ما يعيننا على أدائها بيسر وسهولة ..

وكما قيل بحق :

إن الرسول : كالطبيب الشفيق .. أو الوالد الرحيم :

وشفقة الطبيب لا تمنعه من الجراحة ..مادام حاذقا ..ومخلصا .. ورحمة الوالد ..لا تمنعه من قسوة التربية أحيانا .. مادام يريد لابنه الخير .

فقا ليزدجروا ومن يك حازما ∴ فليقس أحيانا على من يرحم

صعوبة التكاليف :

ففى سورة التوبة تبدو فيما شرعه تعالى : من أمور :

ومنها الصدقة التى تنازعها غريزة التملك ..

ثم هى الصدقة على المغمورين فى المجتمع ..مما لا تهش القلوب لإعانتهم .. من حيث لا عائد معهم من سمعة أو فائدة عاجلة ؟!

ثم ما ذكرته السورة الكريمة من الجهاد :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. ﴾[1] مما يصطدم بغريزة حب الحياة ..

من أجل ذلك .. جاءت الآيتان الكريمتان ربطا على القلوب .. حتى تأنس بالتكليف راضية به . مقبلة عليه .

مظاهر النعمة فى الرسول :

١- ﴿ لقد جاءكم ﴾

جاءكم .. أنتم بالذات .. مع حاجة غيركم إليه ..

ثم جاءكم .. ولم تكلفوا عناء البحث عنه .. والعثور عليه .

٢- ثم هو ﴿ من أنفسكم ﴾ وهذه ناحية خلقية :

أ- تعرفونه بالصدق والأمانة .

ب- تتمكنون بمعرفته من متابعته .. ثم لا تنفرون من هذه المتابعة .

جـ- ثم هو ﴿ من أنفسكم ﴾ .. يمنعه شرفه من التغرير بكم . والكذب عليكم.

٣- ثم هو من الناحية الخلقية :

أ - شفيق بكم ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾

ب- ﴿ حريص عليكم ﴾ حتى لا يقع الفراش فى النار

(١)التوبة : ١١١.

****

ج- وهو ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾.

د- ثم إنه معظم من ربه تعالى : حيث جمع له اسمين من أسمائه سبحانه هما: الرأفة .. والرحمة .. ولم يجمعهما لأحد قبله ولا بعده .

٤- وإذن فكل شرف له .. فهو عائد إليكم فى النهاية لأنه بعضكم .. من أنفسكم.

ويعنى ذلك كله :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم .. كان الرحمة المهداة ..

فهو ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ..

ثم ﴿هو حريص عليكم ﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه .

والاستمساك بدين الحق الذى جاء به ..

.. يحب لكم الخير .. بل ويسعى جاهدا فى إيصاله إليكم .

ويكره لكم الشر . ويسعى جاهدا فى تنفيركم منه.

﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾

أرحم بهم من والديهم .. فكان حقه مقدما على حقوقهم .

المورد العذب .. بلا زحام

لقد كان صلى الله عليه وسلم رءوفا بالمؤمنين ..

والرأفة عاطفة من الحنان والود .. ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقف عند حد الرأفة .. وإنما ترجم هذا الحنان إلى عمل إيجابى فكان رحيما .. رحمة لا تكتفى بتسلية المحتاج .. أو البكاء معه وإنما أهله الله تعالى ليأخذ وضع المنقذ من الضلال.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم هذا المورد العذب ..

والمورد العذب كما يقولون كثير الزحام ..

ولكن الناس اختلفوا .. فمنهم من آمن ومنهم من كفر .. من تولى ..

﴿فإن تولوا فقل حسبى الله ..﴾

ولاحظ أنه تعالى يذكر موقف التولى بالذات .. ليبدو التولى بغيضا منفرا.. مع وجود كل هذه الدواعى للإيمان والمتمثلة فى شخصه صلى الله عليه وسلم .

موقف الداعية :

لا يملك الداعية إلا التسليم .. والتوكل على الله تعالى ..

بعد ما أدى واجبه ..

وقد يكون من أسباب التوكل هنا أن يراجع الداعية الموقف من جديد .. موقف تولى المدعو ..

فلعله أن يكون راجعا إلى طريقة الداعية نفسه وضرورة إعادة النظر فيها من جديد ..

أما بعد :

فهذا ما يريده الحق منا

هذا ما أراده الله تعالى لنا ..

فماذا نحن فاعلون إزاء ما أراده منا ؟!

وما أراده تعالى هو : طاعة هذا الرسول العظيم ..

فإن أطاع الناس .. فبها ..

وإلا .. فإن تولوا ..

فلا تحزن على فائت .. فقد أديت رسالتك ..

ولا تخف منهم فالله تعالى حسبك . وهكذا يجب أن يكون موقف الداعية :

حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ..

الله العظيم .. الذى أطاعه أعظم المخلوقات وهو العرش ..

فدعهم ينفرون .. فما ربك بغافل عما يعملون

[فإن أعرضوا عن الإيمان بك .. وناصبوك ..

فاستعن به تعالى .. وفوض إليه :

فهو كافيك معرتهم .. ولا يضرونك ..

وهو ناصرك عليهم]

نسأل الله بما يقضى الرضا ∴ حسبى الله .. بما شاء قضى

قد أردنا فأبى الله لنا ∴ وأراد الله شيئا .. فمضى

اللهم قد رضينا بحكمك

لأننا نؤمن بحكمتك

من واقعية الإسلام

كان العهد المكى أطول من العهد المدنى .. ليتم إعداد النفس الإنسانية على نار هادئة .. تصل بها فى النهاية إلى مرحلة النضج التى تطيب بها .ثم تصلح للحياة وتصلح بها الحياة .

وإذ يعالج الماديون طفرة .. فإن الإسلام يعالج النفس متئدا .. فكان هو الشفاء من السقام ..

ومن واقعية الإسلام تقديره لظروف الإنسان .. فكان عفوه عن اللمم .. يقول تعالى :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١)

فالعفو عن اللمم :

تقدير لظروف الإنسان :

فهناك ظروف ضاغطة تحيط بالإنسان .. ثم إنه مزود بغريزة التقليد .. التى بها يميل إلى ما يراه فيقلده ..

والله تعالى هو خالقه .. فهو أعلم به .. وأرحم .

﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ :

وتذكر الآية الكريمة أمرين هما سبب هذه المغفرة الواسعة :

الأول : عامل البيئة :

[أنشأكم من الأرض]

---

(١) سورة النجم : ٣٢ .

والثانى : عامل الوراثة :

[وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم]

ولأنه سبحانه العليم الخبير .. فقد حرم لحم الخنزير :

لا للناحية الصحية فقط - كما يقول علماؤنا - بل حرم ذلك من أجل الارتفاع بالإنسان عن المستوى الخلقى الهابط الذى يسببه أكل لحم الخنزير .

بدليل أن الغربيين يكثر فيهم عنصر « الديوث » الذى يقر فى أهله الخبث .. فيسمح لامرأته أن تخادن غيره وتصادقه ..

ثم كان عامل الوراثة أيضا من وراء خطأ الإنسان ..

فيعفو الله تعالى عن لمه .. تقديرا منه تعالى لهذين العاملين فى تشكيل شخصية الإنسان .

ومن إيجابية الإسلام نهيه عن إفساد البيئة من حوله ..

لتظل صالحة كما خلقها الله تعالى .. يتنفس الإنسان فيها الطهر والنقاء .. حتى لا ينحرف مع السلبيات لو وجدت وحتى إذا قلد الإنسان ما يراه وما يسمعه كان التقليد مفيدا .

وذلك قوله تعالى :﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾

بمعنى :

أن الله تعالى أصلحها .. فحافظوا على نظافتها.

واجعلوا محافظتكم هذه شكرا لنعمة إصلاحها .

وتلك علامة من علامات واقعية الإسلام فى تعامله مع الإنسان .

فالله تعالى يعلم أن في الإنسان غريزة التقليد ..

وإذن .. فليظل المجتمع نظيفا .. ليكون الأمر على ما يلى :

١- يكون عمل الخير سهلا فى بيئة تحض عليه .

٢- ثم يكون من بعد ذلك عادة .. يمارسها الإنسان بلا معاناة .. بالإضافة إلى صعوبة الإقلاع بعد ذلك عن عمل الخير بعدما صار عادة تبذل طبعا .. لا تطبعا

ولا يظنن أحد أن غريزة التقليد شر كلها :

فإن من رحمة الله تعالى أن زود سبحانه الإنسان بها ..

وكما يقول علماؤنا هنا :

إن العقل إذا تفرغ لمهمة استقبال الجديد من الأفكار ..

فإن مهمة غريزة التقليد تنوب عنه فى إنجاز كثير من الأعمال :

وذلك أن « النخاع الشوكى » يتولى إدارة العضلات الخاصة بإنجاز العادة .. بعيدا عن الفعل .. بدليل أنك لو فكرت فى كيفية نزولك السلم مثلا أثناء نزولك .. فربما زللت !

(والحديث عن البيئة يجرنا إلى الحديث عن حديث :

(إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ..)[1]

يقول علماؤنا :

(يراد بهذا الحديث : الفقراء أولا :

أ - لأنهم المتضررون بالتخلص من الطعام الذى يقع فيه .

ب- وحفظا على صحة المجتمع كله .. والفقراء من هذا المجتمع .

وهذا يرد على المعترضين على ذلك . لأننا نقول لهم :

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه .

إن نصف الحديث أثبت مالم يكن معلوما قبل ذلك .. من وجود جراثيم كشف عنها العلم الحديث أخيرا ..

وإذن ..فلماذا - والأمر كذلك - لا نبحث عن صحة النصف الآخر بدل أن يعارض الحديث الشريف كله ؟

لقد أثبت العلم .. أخيرا .. ما أثبته الحديث الشريف قبل زمان بقرون متطاولة .. فلماذا نختار الجانب السهل وهو : إنكار الحديث كله ..

إن واجبنا أن نسخر طاقاتنا فى معاملنا لنعلم صدقه فيما قرره .. وما سوف يسفر عنه البحث العلمى النزيه]

واقعية الإنسان

وكان على الإنسان أن يكون واقعيا فى الحكم على نفسه :

فالله تعالى هو القادر .. العليم .. فكيف بالإنسان صاحب العلم المحدود .. والطاقة الهزلية .. كيف به يزكى نفسه أمام ربه سبحانه وتعالى ..

كيف يصل به سوء الأدب .. بل التبجح إلى أن يقول ما حكاه القرآن الكريم:

﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾

﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾

إن الله تعالى هو الذى يزكى .. لأنه أعلم بمن اتقى ..

والحكم النهائى له سبحانه وتعالى لأنه :

العليم بنشأتهم من الأرض .. بعد أن كانوا في عالم الغيب ..

ثم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم .. لم يروا الحياة بعد .

وقد كان هناك ناس يعملون أعمالا حسنة : ثم يقولون :

صلينا .. وصمنا .. فنزلت الآية الكريمة تصحح المفاهيم فى أذهانهم ..

وقد كان من السلف الصالح من لا يعمل جهرا إلا إذا تعذر إنجازه سرا .. مبالغة منهم فى هضم أنفسهم .. وكانوا على ما يقول المفسرون :

(فلا تنسبوا أنفسكم إلي زكاء العمل . وزيادة الخير .

وعمل الطاعات .. ولا إلى الطهارة والزكاء ..

ولا تثنوا عليها .

ولكن . اهضموها . فقد علم الله تعالى الزكى منكم والتقى .

أولا وآخرا . وقبل أن يخرجكم من بطون أمهاتكم . بل وقبل أن تخرجوا من صلب أبيكم آدم .)

ولقد وصل الورع برجال من أمتنا أن يقول أحدهم :

والله لوجاء واحد ونادى فى المسجد : ليخرج المذنب فيكم .. لخرجت أنا ظنا منى ألا مذنب سواى ..

لقد كان الإحساس بالمسئولية يملك أقطار أنفسهم فحملوها على الطاعة .. ظانين أنهم مهما بلغوا فيها فما هم ببالغين شكر نعمة واحدة !

لقد كان أحدهم يرى الذنب .. مثل الجبل ..

والحسنة .. كحبة الخردل ..

فكان من بركة هذا الإحساس أن صار سائقا لهم إلى مزيد من العمل .. فرارا إلى الله تعالى .. عسى أن يزحزحهم عن النار .

وأن يدخلهم الجنة

وإنهم لمحققون -بإذن الله - ما أملوا جزاء ما عملوا .

أولادنا بين التفوق والتوفيق

إذا وهب الله تعالى الصبى الذكاء .. فواجبنا أن نضيف إلي الذكاء .. الإباء.

وإلا.. فقد تستغرقنا الشفقة عليه .. حين نلبى كل حاجاته طائعين .. ومع الأيام .. وبتأثير من هذا الدلال .. وهذا الترف .. تشتعل الرغبات فى صدره نارا.. تقول دائما هل من مزيد .

لقد عودت ذلك الصبى الصغير فى الحى .. أن أعطيه فلما أمسكت يوما .. عملها .. ومد يده يطلب منى ..

وبصراحة لا يحسد عليها .. وبدأ الطفل .. يزامل حياءه فيسأل .. أستغفر الله .. لقد بدأ .. يودع حياته .. يوم أن بدأ يودع حياءه وأحسست بمسئوليتى عما أرى .. وعما أسمع ..

ورفضت طلبه .. متخلصا من مشاعر الحب .. فى محاولة أصلح بها ما صنعت بيدى !

وتذكرت على الفور ذلك المشهد الفريد :

عندما كان صلي الله عليه وسلم يمضى بالحسن أو الحسين فى دروب المدينة ..

فى رحلة يستصحب فيها الجد .. فلذة كبد تمشى معه على الأرض .. وفى هالة من حنان الجد الذى يحب الحفيد .. أشد من حبه ولده .. من صلبه ..

وفجأة .. تغير الموقف .. واكفهر الجو ..

لقد وجد الحفيد ثمرة على الأرض .. فالتقطها بيده .. ومن يده إلى فمه .. على عادة الأطفال . الذين يتصرفون تلقائيا ..

ولقد كان المتوقع لو كنت أنت أو كنت أنا ..

لو كنا مكانه صلى الله عليه وسلم .. أن نشفق على الطفل من الإزعاج .. متجاوزين هذه الحركة العابرة .. التى لن تترك أثرا يذكر .. ويكفى بعد انتهاء

الموقف أن نبصره وبلطف ..

ولكنه صلى الله عليه وسلم يتدخل .. وبسرعة .. وبشدة أيضا .. حين أدخل يده الشريفة فى فم الحفيد وأخرج التمرة ..

حتى قبل أن يتذوق حلاوتها ..

إنها كما يقول المربون :

تمرة .. وليست تفاحة مثلا ..

ثم هى تمرة . واحدة .. فقط ..

ثم إن الطفل لم يسقطها من نخلتها .. أو ينتهبها من حصنها ..

لكنه وجدها .. لقطة .. عبر الطريق .. ولقد مضغها فعلا

ثم .. إنه صلى الله عليه وسلم يخرجها خشية أن تكون من تمر الصدقة ..

فقد خاف أن تكون من تمر الصدقة .. ولم يكن متأكدا ..

ولكن يكفى الظن .. إبراء للذمة .. وحماية للحفيد أن يأكل من غسالة أوساخ الناس !

ولقد يبكى الطفل .. ولقد يعود إلى البيت يشكو إلى أمه الرءوم ..

فليكن .. المهم أن الموقف كان فى حياته منعطفا خطيرا .. سيظل محفورا فى أعصابه

لا يغيب .. يعلم الأمة من دروس التربية ما تنجو به من شقوة الأبد :

لقد كان هوى الطفل .. مع التمرة .. أو مع اللعبة ..

أو مع الثوب الجديد .. أو مع قطعة الحلوى ..

فهل من الحكمة أن نسارع فى هواه ؟

أبدا ..

إن الحكمة فيما فعله صلى الله عليه وسلم ..

ومن مظاهر هذه الحكمة :

أنه تدريب للطفل على أن يضحى .. بما يهواه ..

أحيانا على الأقل ..

وأن يتقبل راضيا بعض ما يكرهه ..

وأن يتعود الضغط على مشاعره .. لينسجم مع المواقف الصعبة ..

إن الله تعالى يقول لنبيه :

﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾

بما أراك سبحانه .. لا بما رأيت ..

وعلى الأسرة أن تحمى ولدها .. من نفسه .. من رغباته ..

وعلى رب الأسرة دائما أن ينمى فى صدره ضميره .. ذلك الحارس اليقظ .. ليكون ذلك المؤمن الذى :

(ماتراه إلا لائما نفسه :

ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟

وإن الفاجر - كما يقول الحسن البصرى - ليمضى قدما .. ما يعاقب نفسه)

وغدا سيعاقبه القدر .. بطفل مدلل .. أو منحل ..

وكفى بالدلال .. وبالانحلال .. عقابا .

ولكن ما أبر الوالد بولده :

عندما يحرص على أن يكون ولده متفوقا ..

وفوق ذلك : أن يكون موفقا !؟

الحصن الآمن

لأن الشيطان الرجيم قاعد لنا بكل سبيل .. فالمعركة بيننا وبينه مستمرة .. وعنيفة .

ولا نجاة منه إلا باللجوء إلي الحصن الذى لا يرام .. والعين التى لا تنام .. إلا بالاستعاذة بالله عزوجل . والتى علمنا إياها بما أنزل من كتاب . وما علم من حكمة.

من هدى الرسول :

عن عبد الله بن حبيب قال :

خرجنا فى ليلة مطر . نطلب النبى صلى الله عليه وسلم . ليصلى بنا .

فأدركناه . فقال :

قل .. فلم أقل شيئا .

ثم قال : قل .. فلم أقل شيئا .

ثم قال : قل ..فقلت يارسول الله : ما أقول ؟

قال : قل : قل هو الله أحد . والمعوذتين .. حين تمسى . وحين تصبح . ثلاث مرات . تكفيك من كل شئ [١] .

وأنت واجد فى هذا المشهد كيف فزع الصحابة رضوان الله عليهم فى ليلة مظلمة ممطرة .. ثم قصدوا الرسول صلى الله عليه وسلم .. وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر ..

ثم كيف ينشئ صلى الله عليه وسلم فى قلوبهم إحساساً قويا بأهمية ..

الاستعاذة بالله تعالى . تلك الاستعاذة التى كان يكفيهم أن يقول لهم :اقرءوا كذا ..

---

(١) رواه النسائى وأبو داود . والترمزى وقال حديث حسن صحيح .

لكنه يثير اهتمامهم بتأخير الجواب استنفارا لأشواقهم .

حتى إذا عرفوا المقصود كان ذلك أمكن للمعنى فى قلوبهم .

الرسول .. القدوة

ولقد كان صلى الله عليه وسلم أسبقهم إلى تطبيق ما يقول :

عن عائشة رضى الله عنها :

.. أن النبى صلى الله عليه وسلم . كان إذا أوى إلى فراشه : نفث فى كفيه بقل هو الله أحد . والمعوذتين جميعا . ثم يمسح بهما وجهه . وما بلغت يداه من جسده .

قالت عائشة :

فلما اشتكى . كان يأمرنى أن أفعل ذلك به [١]

قال ابن القيم :

[وإن للسورتين تأثيرا خاصا فى دفع السحر والعين . وسائر الشرور .

وإن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس]

ما اشتملت عليه السورتان :

اشتملت السورتان على ثلاثة أصول :

١- نفس الاستعاذة .

٢- والمستعاذ به .

٣- والمستعاذ منه .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

الاستعاذة

ومعناها : أعتصم وألتجئ . وأتحرز .

يعنى (الهروب . من شئ تخافه . إلى من تعتصم به منه)

وأصل الفعل : أعوذ

فالمستعيذ : هرب من عدو يبغى هلاكه إلى ربه ومالكه . وفر إليه . وألقى بنفسه بين يديه . كالطفل تعرض له فى الطريق ..

فإذا لقى والده فإنه يرمى بنفسه بين يديه .

فكذلك الالتجاء والانطراح بين يدى الله تعالى .

الفرق بين : أعوذ وأستعيذ

يقال : أعوذ ..

وفى الماضى : عذت

فأنت عائذ فعلا بالله تعالى .. وهذا أكمل من قولك أستعيذ لأنك فى هذه تطلب شيئا غير حاصل .

أما قولك : أستغفر الله .. فلأنك مطالب .. بأن تطلب منه المغفرة . فأنت ملزم

والفرق واضح : بين نفس الالتجاء .. وبين طلب ذلك .

والأول أكمل

فإن قلت :

ما معنى : قل أعوذ ..؟

وهو سؤال أبى بن كعب

عن زر ابن حبيش قال :

سألت أبى بن كعب عن المعوذتين فقال :

سألت النبى ﷺ فقال :

قيل لى .. فقلت . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا معناه : أن القرآن من عنده تعالى ولا يغير فيه الرسول حرفا .

المستعاذ به : الله تعالى وحده

ومن استعاذ بخلقه زاده طغيانا ؟

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾

جاء فى التفسير :

أنه كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر قال :

أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه .

فيبيت فى أمن وجوار منهم . حتى يصبح .

والرهق : الإثم وغشيان المحارم ..

أي زادوهم بالاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن]

واحتج أهل السنة على المعتزلة فى أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله :

(أعوذ بكلمات الله التامات)[1] وهو صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبداً .

ومثله : أعوذ برضاك من سخطك . وبعفوك من عقوبتك) [2]فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته . وأنه غير مخلوق)

ولاحظ ما وصف به تعالى نفسه فى السورتين

(ملك . إله . رب) يناسب الاستعاذة المطلوبة ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة .

---

(١) مسلم : كتاب الذكر والدعاء.

(٢) أبو داود : كتاب الاستفتاح .

أنواع الشرور المستعاذ منها

الشر قسمان :

١- ذنوب وقعت من العبد نفسه يعاقب عليها .. وهو شرها .

٢- وذنوب واقعة به من غيره : وهذا الغير :

أ - إما مكلف ← نظيره وهو الإنسان
← أو ليس نظيره وهو الجن

ب- أو غير مكلف .. مثل الهوام.

والسورتان تضمنتا الاستعاذة من كل هذه الشرور .

١- شر الغاسق .. ٢- والنفاثات

٣- والحاسد .. وقبل هذا : ٤- شر المخلوقات عموما .

معـــنى الشر

الشرور هى :

١- الآلام النفسية والبدنية

٢- وأسبابها .

فالكفر والمعاصى : سبب ..والآلام سبب والمعاصى تزيل النعم :

فما حفظت نعمة .. إلا بطاعة

ولا زادت .. إلا بالشكر

ولا ذهبت إلا بالمعصية

إذا كنت فى نعمة فارعها ∴ فإن المعاصى تزيل النعم

*****

من خصائص المؤمنين

يقول عزوجل :

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ المؤمنون : ١-٣ .

تمهيد :

القاعدة التى يشاد عليها الإسلام . ذات شقين :

١- الفعل .

٢- والترك .

فالفعل هو الصلاة .

والترك هو : الإعراض عن اللغو .

ويعنى ذلك : أخذ النفس ابتداء بعزائم الأمور . مما يشق عليها .. ليسهل عليها بعد ذلك أن تواصل العبادة بلا معاناة .

وللمشقة هنا بعد آخر :

فأنت مأمور بالخشوع فى الصلاة .. لا بمجرد أدائها أداء رتيبا ثم إنك مأمور بالإعراض عن اللغو أمرا يفرض عليك ما يلى :

١- ألا تباشر اللغو ابتداء .

٢- ولا تصاحب من يلغو فى كلامه .

٣- بل لابد أن تشعره بأنك غير راض عما يقول

وإذن .. فما أصعب المهمة ..

معنى اللغو :

واللغو من الكلام هو :

مالا يكون بالمرء إليه ضرورة ولا حاجة .

وهو بهذا المعنى يشمل حتى المباح من الكلام الذى لا تدعو إليه حاجة .. فضلا عن الحرام والمكروه .. فهو داخل فى اللغو دخولا أوليا .

خطورة الكلمة

من مجموعة الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا الباب نستخلص من خطورة الكلمة وضخامة آثارها ما يلى :

١-قد يتكلم المرء بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا :

أ- يستحق بها سخط الله .

ب- تباعد بينه وبين الجنة بعد ما كان قريبا منها .

جـ - ينعكس شؤمها على القلب فيقسو .. وماذا يبقى من حياة الإنسان إذا قسا قلبه .فتجمد إحساسه .

ومن أجل ذلك .. ومن رحمة الله بنا أن رسم لنا من الوسائل ما يحمينا من هذه الآثار .

١- بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢- ودوام ذكر الله تعالى .

ونقرأ فى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم شرحا للآية الكريمة :

من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه [١]

إننا جميعا نرغب فى أن يكون إسلامنا حسنا : أى : تاما . كاملا .

وبنفس القوة ينبغى أن تكون أعمالنا وأقوالنا على مستوى أمانينا ..

ومن يطلب العلياء .. لم يغله المهر !

والحديث الشريف يدل على واحد من الطرق الواصلة بنا تمام إيماننا وكماله وهو:

(١) رواه الترمزى وقال حديث غريب .

الإعراض عن اللغو :

أن نترك مالا يعنينا .. لنحقق معنى الإسلام فينا :

أن نسلم الباطن لله تعالى .. بالعقيدة الصحيحة ..

وأن نسلم الظاهر له تعالى .. فنعمل على وفق هذه العقيدة ..

بمعنى :

أن الله عزوجل هو الذى خلقنا .. وإذن . فنحن عبيده .

وما دمنا عبيده تعالى .. فنحن ملك له سبحانه :

كل جوارحنا .. ملك له ..

ولا يبقى فينا شئ لغيره سبحانه وتعالى .

إنه الإسلام :

والسلم بمعنى : السلف :

فأنت تقدم الثمن .. ثمن السلعة الغالية .. وسلعة الله غالية .. إنها الجنة .

بل إنها جنات تجرى من تحتها الأنهار .

نحن مطالبون بترك مالا ينفع لا فى دنيا .. ولا فى دين .

وهو ما يمكن أن نعيش بدونه .. ولا يشكل ضرورة فى حياتنا ..

وواجبنا يفرض علينا أن نحافظ فقط على :

١- ما به قوام البدن .

٢- وما به حفظ النوع .

٣- إلى جانب الكمالات العلمية والخلقية .

وما فاتنا بعد ذلك من الدنيا شئ نبكى عليه !

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه .·. فمافاته منها فليس بضائر

فإذا تحقق ذلك .. فهو أمارة رضاء الله تعالى عنا .

وبنفس القوة نقول :

إن التقصير فى تحصيل ذلك .. أمارة غضب الله تعالى ..

لأنك عند ما تشغل نفسك بمالا يعنيها .. فمعنى ذلك : أن يفوتك ما يعنيك..

ومن لم يشغل نفسه بالحق .. شغلته بالباطل :

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ؟!

ذلك بأنك باللغو تملأ وقتك بالتافه من القول أو العمل ..

مع أن هذا الوقت نفسه هو الوعاء الزمنى للجاد من القول .. والنافع من العمل .. تسرفه أنت .. لتوظفه فيما يضيرك .

ورحم الله مالك بن دينار . فقد كان يقول :

إذا رأيت قسوة فى قلبك .. وحرمانا فى رزقك .. فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك !!

وهذه الحكمة تفسير لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

إن القسوة والحرمان دائرة متداخلة مع الكلام فيما لا يعنى ولا يغنى .

وإذا كان ذلك جزاء من يثرثر فى كلامه .. فكيف بمن يفعل مالا يعنيه ؟!

إن الله تعالى يسمع منك ويرى ..

﴿أبصر به وأسمع ﴾

فخذ الخطوة العملية بكف اللسان عن الهذيان .. واعتبر كلامك من عملك حتى لا تتجرأ عليه .. وعليك بسبيل الوصول كما يسميه علماؤنا :

اغتنم ركعتين فى ظلمة الليل إذا كنت فارغا مستريحا .

وإذا ما هممت بالباطل اجعل مكانه تسبيحا .

نؤمن بحكمته فنرضى بقسمته

يقول الله تعالى فى سورة النساء /٣٢

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شئ عليما ﴾

تمهيد :

التفاضل بين البشر : قسمة من الله تعالى عادلة ..

فالله تعالى : عليم بما يصلح عباده من قبض أو بسط .

ومن الناس من لا يصلحه إلا الغنى .. ولو أفقره لفسد .

ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر .. ولو أغناه لفسد ..

والأمر على ما يقول سبحانه وتعالى :

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ﴾(٢)

هذا هو حكم الله . ولكن الناس .. وفى غمرة التنافس المحموم فى عرض الدنيا ينسون هذه الحقائق الدامغة .. فلا يرضون بما قسم الله العليم الحكيم من رزق.. جاهلين ما فى العطاء والمنع من حكم وأسرار ، فيتحاسدون ..

مع أن الحسد قاطع حبال المودة بين الناس .. سائر بالحاسد إلى الكفر .. فعقيدته من الحسد على خطر عظيم..

وعلى هذا الفريق أن يفيق .. مستسلما لحكمة الله تعالى التى تعطينا

---

(١) سورة العنكبوت ٦٢ .

(٢) سورة الشورى : ٢٧ .

أحيانا .. مالا نريد .. ثم تمنع عنا ما نريد ..

وهو تعالى فى الحالين هو الحكيم العليم . ودور الإنسان هو الرضا بما قسم .. وبما حكم .

وهو المعنى الذى جاءت به الآية الكريمة لزرعه فى النفوس قبل أن تنزلق فى طريق غير مأمون العثار.

قال المفسرون فى سبب نزول الآية الكريمة :

قال الرجال : فضلنا على النساء فى الدنيا : لنا سهمان . ولهن سهم

فنرجو أن نكون فى الآخرة كذلك : لنا أجران . ولهن واحد

وعلى الطرف الآخر قالت أم سلمة رضى الله عنها . معبرة عن آمال المرأة المسلمة :

« ليت الله تعالى كتب علينا الجهاد . كما كتبه على الرجال . فيكون لنا من الأجر مثلهم » فنزلت الآية الكريمة تشجع بادرة الطموح .. ولكنها تقف بهذا الطموح عند حده .. قبل أن يصير أمانى .. والأمانى بضاعة الحمقى .

صلة الآية بما قبلها

يقول تعالى فى الآية قبل هذه :

﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ (١)

وبمجموع الآيتين الكريمتين نطالع نعمة من نعمه تعالى علينا :

فهو سبحانه بالآية الحادية والثلاثين .. ينهانا عن الكبائر ..

(١) النساء : ٣١.

وبالأية الكريمة « ولا تتمنوا » ينهانا عن الحسد ..

ويعنى ذلك :

أنه تعالى يريد أن يسلحنا بالكمال وبالجمال معا :

ظاهرا .. بالتخلى عن الكبائر .

وباطنا .. باطراح الحسد .

ويكون ذلك فى نفس الوقت درسا تربويا ..

لأنه تعالى ينهانا عن الكبائر .. ثم يضع أيدينا على سبب هذه الكبائر وهو الحسد .. حتى يجتث الشجرة الخبيثة بجذورها لنصبح من بعد أطهارا صالحين .

المنهى عنه :

فى كيان كل إنسان نصيب من الحسد

ولا سبيل إلى التخلص منه .. لكننا مطالبون ألا نحقق مضمون هذا الحسد فى واقع الحياة ..

أما إذا كان الحسد طموحا إلى مثل ما للغير .. فهو الغبطة المحمودة ..

والنهى عن التمنى : نهى عن الدخول فى معارك وهمية مع الآخرين .

ممن تفردوا دوننا بنعم أو امتيازات .

ذلك بأنها معارك بلا سلاح .. وإنما هو اللعاب السائل وراء نعم قد نملك أسباب تحصيلها .. لكننا متكاسلون قاعدون .

والعلماء يقولون :

هذا شئ رويته .. أم تمنيته ؟! .. ويكفى أن يقال :

فلان يتمنى الأحاديث أى يفتعلها .. وهو مقلوب من المن .. وهو الكذب

مجالات التمنى :

فى التعبير عن المشتهى المتمنى بما .. وما فيها من إبهام دلالة على معنى كمى .. ومعنى كيفى :

ويعنى الإقلاع عن اشتهاء مثل ما للغير :

كالذكاء .. والعفة .. والشجاعة .. والجمال .. والسخاء .. والقوة ..

أى لا تتمنوا أن يكون لكم مثل هذا تماما .. وإلا تخطيتم الحاجز المانع .. ولكن اتركوا التحديد للقدر الأعلى .

ذلك بأن القرآن يريد فطمك عن عادة التمنى .. وقضاء الوقت مستغرقا فى أحلام يقظتك .. وتمنى الصغير يجر إلى الكبير .. ولا يملأ عين ابن آدم ! إلا التراب

خطورة النهى :

تتجه طاقة الحسد أول ماتتجه إلى القيادات المتميزة فى الأمة ..

ثم إلى الأقرباء منهم بالذات .. حيث تزداد نسبة الحسد بين الأقران .. وفى مقدمتهم : الأقرباء .

ومن أجل ذلك كان الحسد خطيرا من حيث إنه هجوم على قيادات فى كل مجال من مجالات الحياة .. نحن أحوج ما نكون إليها ..

فإما أن نحذو حذوها .. وإما أن نشمر عن ذراع .. لتكون أسوة لنا .. حتى نصل إلى مثل ما وصلوا .. أما الاحتمال الثالث وهو الحسد أو التمنى .. فلا يجتمع مع الإيمان فى قلب مسلم

من موانع التمنى

ونظرة متأنية للآية الكريمة .. تقف بك على مجموعة من الإشارات تعينك

على التخلى عن التمنى بقدر ما تحرضك على أن تبنى مثل ما بنى المحسودون أو أن تفعل مثلما فعلوا :

١- فالمجتمع الإسلامى « كل» .. وأفراده أجزاء .. بل أعضاء هذا الكل .. فالتفضيل فى الواقع : منكم وإليكم ..

وإذ يقول سبحانه وتعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم »

ويقول عز من قائل :﴿بعضكم من بعض ﴾ فإن ذلك يعنى أن أمة الإسلام جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .. فإذا سعد منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسرور والبهجة ..

فكل واحد : مفضل .. ومفضل عليه فى نفس الوقت ..

٢- ثم إن الله هو الخالق .. الرازق .. المتفضل .. وما دام قد فضل .. فلا معقب لحكمه .

٣- ثم إن طبيعة الرجل .. وطبيعة المرأة كلتيهما متكاملتان .. لا متعاندتان.. ولكل منهما عمله .. وله كذلك أمله .. والحدود الفاصلة مانعة من التطابق بينهما .. وإلا فسدت الحياة .

٤- وعلى الذين يسيل لعابهم وراء كل نعمة تنزل بساحة غيرهم .. عليهم أن يعطوا للآية الكريمة كل طاقة الفهم فيهم **ليدركوا ما يلى :**

أ - أن ما يحصله الآخرون هو ثمرة كسبهم .. وكفاحهم .. وليس مخصوما من حسابكم .

ب- وهم مع هذا لم يحققوا كل آمالهم من كسبهم ..

وإنما الذى حصلوه جزء يسير .. كما يفيد التعبير عنه فى قوله تعالى : « مما اكتسبوا .. ومما اكتسبن »

ومعنى ذلك :

أنهم مثلكم ينقلون خطاهم على طريق طويل .. وما زالت الشقة بين أيديهم بعيدة .. بعيدة .. ولهم آمال باقية ما زالوا يحشون المطايا على رجاء تحقيقها .. وإذن .. فكلنا فى الهم شرق ..

وهكذا : تعب كلها الحياة .. ثم إن ما حصلوه ليس بكسبهم .. وإنما هو فيض من فضل الله .

٥- إن حرص الإنسان على سلامة نفسه وجسمه يفرض عليه أن يحميها من الحسد المذموم ..

كيف ؟

يصور الشاعر ذلك قائلا :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا   لقلبك يوما .. أتعبتك المناظر

رأيت الذى : لا أنت قادر   على كله .. ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا مصير الذى يتبع قلبه هواه .. لتكون عينه رائدا لهذا القلب ..

عينه التى ترى ما يغرى من مناعم الدنيا يرفل فيها الآخرون .. ثم ومن ورائها فى قلبه الواله .. المشتت .. الموصول الغم لأنه لن يحقق عشر معشار ما يتمنى :

إنه يرى غيره : أذكى .. وأغنى .. وأجمل .. وأقوى .. فما هو رد الفعل ؟

أ - تشويش على الفكر .

ب- هم فى القلب

وتصبح أجهزة الاستقبال الفكرية والوجدانية معطلة فكيف يكون للحاسد عندئذ قرار سليم ؟!

وماذا يبقى من إيمانه بينما موقفه موقف الذى يظن أنه جدير بكل نعمه تعالى .. دون غيره ..

وبالتالى .. فكأنما كل نعمه لدى سواه .. كأنما ضلت طريقها فوصلت إلى غيره .. وكان المفروض أن تحط رحالها فقط بين يديه ؟!!

٦- ثم إن التفاضل بين الناس أثر من آثار حكمته تعالى وعلمه :

﴿ إن الله كان بكل شئ عليما ﴾

وإذن .. فكما تصون الآية الكريمة نفسك وجسمك من الضرر فإنها وبالدرجة الأولى تصون عقيدتك من التصدع :

ذلك بأنه إذا كان الله عليما .. حكيما .. قادرا .. فإن الحسد يوشك أن يكون اعتراضا على تدبيره تعالى وحكمته . وقدرته ..

ومن إفرازات هذا الخلل .. استصغار الحاسد نعم الله تعالى عليه .. والتى لا يراها مشغول بالتركيز على نعم الغير ..

ويعنى ذلك : تراجع قيمة الشكر .. شكر نعم أنت رافل فيها لكن الهوى الجامح يطوح بك بعيدا .. فلا ترى .. ولا تسمع .. ولا تحس ..

٧- والمسلم مطالب ألا يعطى عقله إجازة .. ليصير فى غيابه جثة من اللحم لا تعى..

يقول البقاعى :

(ومتى تأمل العاقل فى ذلك :

وجده محض عطاء من الله تعالى :

فمن شاهد غيره أرفع منه فى شئ من هذه الأحوال . تألم قلبه . .

وكانت له حالتان :

إحداهما : أن يتمنى حصول مثل تلك السعادة له .

والأخرى : أن يتمنى زوالها عن صاحبها . وهذا هو الحسد المذموم .

لأنه كالاعتراض على الله الذى قسم هذه القسمة .

فإن اعتقد أنه أحق منه .. فقد فتح على نفسه باب الكفر . واستجلب ظلمات البدعة . ومحا نور الإيمان .

فإن الله تعالى فعال لما يريد . لا يسأل عما يفعل . فلا اعتراض عليه سبحانه.

وكما أن الحسد سبب الفساد فى الدين . فهو سبب الفساد فى الدنيا .

فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له .. عالما بأن ذلك مصلحة . ولو كان غير ذلك .. فسد .

فإن ذلك كله قسمة من الله صادرة عن حكمه وتدبيره وعلمه بأحوال العباد فيما يصلحهم ويفسدهم]

وكما قال الحكماء :

إذا لم يكن ما تريد .. فأرد ما يكون ..

حاول أن تنسجم معه .. أن ترضى به .. لأنه قضاء ربك وقدره .. وقضاء الله تعالى خير لنا .

وإذا كان لا يغنيك ما يكفيك .. فليس في الدنيا شئ يغنيك ..

وإن كان يغنيك .. ما يكفيك .. فالقليل من الدنيا يغنيك ..

ولا تعمل شيئا من الحق رياء .. ولا تتركه حياء !

وإذا فاتك من الدنيا شئ .. وإذا أصابتك مصيبة فى الدنيا ..

أولا : فثواب الله لك خير .

وثانيا : حاول أن تقنع نفسك بأن تأديب المصيبة لك عوض عن ذهاب مالم تحققه .. وصدق القائل :

إذا اللذاذات فى الدنيا استفاضت .·. فإن الدين أعذبها مذاقا

يقول الماوردى[1]:

(لو لم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنى .. يتوجه نحو الأكفاء والأقارب . ويختص بالمخالط والمصاحب .. لكانت النزاهة عنه كرما . والسلامة منه مغنما .

فكيف وهو بالنفس مضر . وعلى الهم مصر .

حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف : وقد قال معاوية رضى الله عنه :

ليس فى خصال الشر أعدل من الحسد :

يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود .

وقال بعض الحكماء :

يكفيك من الحاسد : أنه يغتم فى وقت سرورك)

الحل القرآنى :

والحل القرآنى لمشكلة التمنى مذكور فى الآية الكريمة . لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا :

﴿ واسألوا الله من فضله ﴾

أسألوا « الله » الذى له كل صفات الكمال . فهو وحده القادر على أن يحقق رجاءكم وأن يعطيكم سؤ لكم ..

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٤٥ .

على أن يكون السؤال منطلقا من واقع عملى .. كما سأل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ربهما وهما يبنيان البيت فعلا ..

فاكتسبوا .. ولا تعجزوا فتطلبوا بالتمنى

وهو إشارة إلى تحريك السبب مع الإجمال فى الطلب ..

اسألوه فهو تعالى يغضب إذا لم تسألوه ..

وهو سبحانه باسط يديه أبدا .. ويبقى أن تتجه إليه تعالى آمالنا .. ليفيض علينا من فضله العميم .. ومن خزائنه التى لا ينفذ خيرها أبدا .

انتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ..

وهذا الانتشار هو القاسم المشترك بين جميع الخلق ..

لكن نتيجة السباق إليه تعالى وحده .. وهى خاضعة لحكمته تعالى . محققة مصلحة العبد مهما كان كيفها أو كمها .

فمن الناس من لا يصلحه إلا الغنى .. ولو أفقره الله تعالى .. لفسد حاله .

ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر .. ولو أغناه سبحانه .. لأفسده الغنى .

من أدب السؤال :

ومن أدب السؤال : أن يكون مجملا .. فلا يليق بك أن تعين أملك بالتحديد.. لأنه عاقبة الأمور لله تعالى ..

ولأنك غافل عنها .. فاتركها للعليم .. القادر .. الحكيم . سبحانه وتعالى .

وذلك واحد من سمات المنهج القرآنى فى الإصلاح : إصلاح النفس :

هدم القيم العفنة .. ثم البناء الجديد .. الرشيد ..

فإذا كنت منهيا عن الاسترسال مع حبال الأمانى .. فتوقف .. وبدل أن تبذل

طاقتك في الهدم .. سخرها في البناء .. عاملا آملا .. كغيرك من العاملين الآملين..

ورحم الله حكماءنا :

لقد كانت لهم **مواقف عملية في وقف هجمة التمني** .. صادرين عن قوله صلى الله عليه وسلم :

(أقلوا الدخول على الأغنياء . فإنه أحرى ألا تزدروا نعمة الله] [(١)] .

ولله درهم حين يقول قائلهم :

أصبحت في نعمتين .. لا أستطيع شكرهما : هما :

أ - ذنوب سترها الله تعالى .. فلم يعيرني بها أحد .

ب- ومودة لي في قلوب الناس .. لا يبلغها عملي .

ألا ما أكثر ما نعصيه سبحانه .. وله من النعم ما لا تحصيه .. فعلى أي شئ نشكره تعالى :

على جزيل ما أنعم ..

أم على ما ستر من قبيح ؟!

إن مجرد ذكر النعمة شكر لها ..

مجرد ذكرها باللسان ..

وما أشد تقصير الإنسان عندما يهون الله تعالى عليه متاعب الطريق .. ثم يرضى منه بالقليل .. ومع ذلك فهو ماض في جحوده .. يحفر قبره بيده

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

---

(١) أخرجه الحاكم ١١/ ٣٢٣ .

من فقه الآية الكريمة

بعد أن حذرتنا الآية السابقة عليها من أكل أموال الناس بالباطل .. ومن قتل النفس.. وهذا من آفات الجوارح .. فإن هذه الآية الكريمة تحذرنا من آفة الباطن وهى: الحسد ..

وبهذا يتم الدرس كمالا ..

ويبدو **ملمح من ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة** وهو :

إن الله تعالى إذا أمر عباده أو نهاهم .. فإنه - تفضلا منه سبحانه - يعينهم على الامتثال بذكر ما يسهله عليهم .

فهو سبحانه يحذرهم هنا من الحسد .. والذى يسول لهم

أكل الأموال . وقتل الأنفس .. ردعا لهم .. قبل أن يترددوا فى بؤرة العصيان.

ذلك بأن الجوارح تابعة للقلب :

فإذا ذهب القلب إلى شئ .. ذهابا معقولا .. فإن الجوارح تذهب إليه .. ذهابا محسوسا ..

من أجل ذلك تحذرهم الآية الكريمة من الحسد .. لتظل اتجاهات القلب راشدة ماجدة .. ومن ورائه تمضى الجوارح أيضا

راشدة ماجدة .. فى الوقت الذى مضى القلب الحاسد بصاحبه إلى الهاوية :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى .. على عوج الطريق الجائر

******

التربية العملية :

والآية الكريمة ترشد طاقة العمل لدى الإنسان قبل أن تأكلها الهموم .. فهى تقول للناس :

(وجهوا أنظاركم إلى ما يقع تحت كسبكم . ولا توجهوها إلى ما ليس فى استطاعتكم .

فإنما الفضل بالأعمال الكسبية ..

فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم] أ. هـ

العدل الإلهى :

إن مجال العمل مفتوح .. والوصول إلى مثل ما وصل إليه المحسود متاح فليعمل الرجل .. ولتعمل المرأة : كل فيما خلق له ..

ولن يضيع الله أجر العاملين ..

فلكل نصيب .. مشتق من عمله هو ..

ويترتب على ذلك من الإيجابيات ما يلى :

١- اتقان العمل .

٢- توجيه أحلام اليقظة لتدور حول إنجازات المستقبل ..

قيل لرجل أعمال :

كم عمرك ؟

قال : مائة مشروع !

فلست طاعنا فى السن .. ولكنى طاعن فى الإنجاز .

٣- الاعتماد على المواهب الشخصية .. ليعيش الإنسان بعمله وعرق جبينه .. متحررا من التبعية لأحد

الاكتساب .. والكسب:

وتؤثر الآية : الاكتساب .. على الكسب ..

لأن فى صيغة الاكتساب ما يفيد الكدح والمعاناة فى طلب العيش .. بمعنى بذل أقصى الجهد . وتحدى أقسى المواقف ثم لن يكون للمكتسب بعد ذلك كل ما يتمناه من جزاء :

وإنما له فقط :

« **نصيب** »

إنه .. حتى إذا تفانى فى عمله .. فليس له إلا قدر من جزائه

١- فللفقراء فيه نصيب .

٢- ثم إنه لم ينجزه بجهده وحده .. وإنما الفضل أولا وأخيرا لله تعالى .

فنحن نحرث .. والله تعالى هو الذى يزرع

التنوع.. وليس التحيز :

إن القدر الأعلى لا يتحيز لأحد .. وإنما هى : مصلحة الإنسان .. المجتمع كله..

وتنوع الأنصباء تابع لتنوع الطبائع.

إنه « طاقة» الزهر : جمالها فى تنوعها .

إنه تعالى لا يعطى جنسا على حساب جنس .. وإنما حكمته قاضية بتحقيق مصلحة الاثنين معا ..

واجب المسلم :

واجب المسلم : أن يعمل .. وأن يعمل بكل طاقته .. ثم يسأل ربه تعالى دوام نعمة التوفيق :

فاسألوا الله من فضله :

١- فهوتعالى لا تنفذ خزائنه .

٢- والفضل له ابتداء وانتهاء .

٣-ألا وإن سؤاله تعالى يحميكم من .

أ -إضاعة الطاقة حسرات وزفرات .

هذه الطاقة التى نهدرها بالتمنى . الذى هو بضاعة الحمقى .

ب- ويحميكم أيضا من سوء الظن بالله تعالى ..

وهنا تكون العقيدة على خطر عظيم ..

فاسألوا الله تعالى :

(فهو مصدر الإنعام والعطاءات .

الذى لا ينقص ماعنده بما أعطى . ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب)

أما بعد :

فقد كانوا يفضلون تجارة الثياب .. لأن تاجر الثياب

لا يعرف الحسد : فهو يحب أن يكون الناس فى رفاهية ونعمة .

رحمـــاء بينهم

يقول الحق سبحانه :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [١]

يقولون :

إن المؤمن كالجمل الأنف .. إذا قيد انقاد وإن أنيخ على صخرة استناخ .

والجمل الأنف :

الذلول .. الذليل .. المواتى ..

الذى يأنف من الزجر . ومن الضرب .. فيطيع .

يعنى :

يعطى ما عنده من السير .. عفوا سهلا .

وكذلك المؤمن :

لا يحتاج إلى زجر .. ولا عتاب .

وما لزمه من حق قام به .. وصبر عليه .

وهو عضو فى أمة .

لها جانبها الروحى .. فأفرادها رحماء بينهم ..

ثم لها جانبها المادى .. يبتغون فضلا من الله .

وبهذه الشخصية تفردت بالبقاء دون أمم أخرى .. تبالغ

فى جانب على حساب آخر ..

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .

ومن ثم كانت أمة الإسلام هى الجديرة بالبقاء ..

والتى يغيظ الله بها الكفار مرتين :

بكونهم رحماء بينهم

ثم .. بكونهم أشداء على الكفار ..

رحماء بينهم :

وإذ يمارس المؤمنون حياتهم أعزاء فى مواجهة الأعداء .. فإن لهم من عون الله تعالى مددا .. أى مدد ..

ورحم الله امرءا يرى أعداء الله من نفسه قوة .. قوة مشتقة من دينه الذى يبطل ماكان باطلا من الأديان ..

وينسخ الصحيح منها ..

ولكن الدين القيم لن تكون له تلك الهيمنة إلا برجال على مستواه .

وكذلك كان الصحابة رضون الله عليهم .. الذين مكن الله تعالى بهم ذلك الدين القيم بسبب أنهم كانوا رحماء فيما بينهم ..

كانوا على قلب رجل واحد ..

وبينما الدنيا من حولهم تفرق بين الأحياء .. فإنهم يظلون الرواد الواصلين إلى ما يريدون .. موحدين .. متوحدين :

يقول الشيخ محمد عبده : [١]

(هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين .. حرين .. صادقين.. وفيين .. كريمين .. شجاعين .. صابرين .. حليمين .. متواضعين .. عفيفين .. رحيمين ؟

(١) المسلمون والإسلام - ٦٩.

أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا .. لأحيتها .. أو قفرا لأنبتتها .. أو جدبا لأمطرتها ..

من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها .. ولأقامت لها من الوحدة سياجا لا يخرق .. وحرزا منيعا لا يهتك .

وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال فى هذه السجايا الشريفة .. أمة

قال نبيهم :

إنما بعثت أتمم مكارم الأخلاق [(١)]

منابع الرحمة :

ومن منابع الرحمة : توجيهاته صلى الله عليه وسلم .. والتى تلخصت فى :

أ - إدراج الرجل الرحيم فى قائمة أهل الجنة .

ب- ثم بيان أهمية الرحمة إلى حد أنه لا يحرم منها إلا شقى . ولا يتصف بها إلا تقى .

جـ - ثم حرمان القاسى من رحمة الله تعالى .

وفى هذه المعانى جاء قوله صلى الله عليه وسلم :

أهل الجنة ثلاثة :

ذو سلطان مقسط موفق .

ورجل رحيم . رقيق القلب . لكل ذى قربى مسلم .

وعفيف . متعفف . ذو عيال ؟ [(٢)]

وقد كان لشيخنا المرحوم د. محمد سعاد جلال تعليقه على هذا الحديث .

والذى يليه .. ولا دور لنا إلا التوضيح والتبسيط .. وهو نوع من التأليف على أى حال !

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ، ١٠/١٩٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ، ٤/١٦٢.

إن الجنة تتسع .. وتتسع .. حتى لتقبل من قال لا إله إلا الله .. فكل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة .. وإن زنى وإن سرق .. رغم أنف أبى ذر ..

لكن أولى الناس بالجنة هؤلاء .. بما قدموا من عمل صالح . وبما حققوا من نجاح فى مجالات عز فيها النجاح ..

وأول هؤلاء الجديرين بالجنة :

١- ذو ولاية .. أو قضاء .. أو زعامة .. أو رئاسة عمل ما ..

ومع إغراء السلطة وضغوطها .. إلا أنه يظل مستمسكا بالعدل :

لا يظلم .. ولا يحابى .. ولا يتكبر ..

٢- والرجل الذى ينشر على الناس جناح رحمته .. من يعرف ومن لا يعرف .. لكنه يخص برحمته أقرباءه ..

يعينهم بجاهه .

ويسعى فى حوائجهم .

يخاصم من يخاصمون .. ويصادق من يصادقون ..

من أحبهم .. أحبه .. ومن أبغضهم .. أبغضه

٣- ورجل تئوده مسئولية العيال ..

ومع ذلك :

فهو عفيف بطبعه ..

وإذا وقع تحت ضغط الحاجة يوما .. تكلف العفة .. وتسلح بها أمام مغريات الحياة ..

إنه عفيف .. متعفف عن :

مكاسب السوء ..

وسؤال الناس ..

وقبول الصدقات

القاسم المشترك :

والقاسم المشترك الأعظم والذى يجمع الثلاثة هو :

أ - احترام النفس .

ب- تعظيم حق الإنسان .

جـ- إصلاح الباطن قبل الظاهر .

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

ولمثل هذا فليعمل العاملون

وفى التحذير من القسوة يقول صلى الله عليه وسلم :

من لا يرحم الناس لا يرحمه الله (١)

قد يكون الإنسان قويا بجاهه .. أو منصبه أو ماله ..

والواجب فى هذه الحالة :

ألا يغتر الإنسان بما هو فيه من نعمه تعالى .. بل عليه أن يشكر نعمة الواهب سبحانه برحمة عباده لأنهم عياله سبحانه .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ٣٥٨ ، ٦٣١ .

يرحم الرئيس المرءوس .

والقوى الضعيف

والأستاذ التلميذ ..

والواجد المحتاج .

ومن لا يرحم .. فجزاؤه أن يحرم من رحمته تعالى ..

أ - فى الدنيا .. يسلط الله عليه القساة الغلاظ .

ب- لا يشفع أحد له .

جـ - ثم يعذب بعد ذلك فى الآخرة .

لماذا ؟

لأنه مصدر الشر :

فهو أنانى :تهون لديه كرامات الناس

لديه الاستعداد لممارسة الإجرام

إنه واحد من الأشقياء ..

ولا مصير لهم إلا الشقاء

من مظاهر الرحمة والتعاون :

قال ابن عمر رضى الله عنه :

لقد رأيتنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم !

لقد دخل العربى الإسلام بفطرته المطبوعة على أن كل امرأة فى الدنيا خالته.. وكل بنت أخته .. وقد تبناها الإسلام فجعل منها شيئا آخر ..

كلهم يؤثر على نفسه : بما يملك من عرض ..

أما العرض .. فلا يبذل أبداً !!

بل كان صاحب الدار يعود إلي داره ليجد صاحبه وقد فتحوا الباب .. ثم دخلوا .. ثم ها هم أولاء يأكلون .. وبلا حرج ..

ويسعد المضيف بأصدقاء أحسنوا به الظن ..

لقد كان كل واحد :

يعطى .. أو هو مستعد للعطاء ..

ولكننا اليوم : قد يكون العطاء من جانب واحد بين الصديقين ..

والنتيجة : سوف يبكى أحدهما أخيرا !!

ونتساءل :

ما معنى الشدة على الكفار

والمقصود بهم : من اعتدوا علينا فأخرجونا من ديارنا

إن أظلم الناس من يتواضع لمن لا يكرمه .. ويتودد لمن لا يفيده !

وما دمنا مسئولين عن دين يجب أن يظهر على الدين كله .. فقد وجب على،

أمتنا أن تكون شديدة بمعنى أن تكون :

أصح أجساما

وأوفر سلاحا

وأشد قوة

وأكثر تدريبا

وأشد تصويبا

إنهم أشداء : كما يغلظ الأسد على فريسته .. التى عرض عليها السلام فأبت إلا الحرب !!

ومن الناس من يعكس الآية .. فكان : شديدا على المؤمنين رحيما بالكافرين من المعتدين ..كالحجاج مثلاً :

ولقد نال جزاءه العادل : هوانا وخزيا :

لقد استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشا يهزم الحجاج .

بل ويحاصره فى قصره .. ويتركه وهو مذعور . حتى عيره أحد الشعراء فقال:

أسد على وفى الحروب نعامة فتخاء [1]تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الورى بل كان قلبك فى جناحى طائر

ويذكرنا الموقف بنورى السعيد .. الذى طغى .. ثم .. وفى النهاية تخفى فى ثياب امرأة .. لكنه قتل ليلا .

تركت هوى نفسى فعشت بلا نفسى وجافيت أنسى فانحدرت إلى الأنس

وما اتخذت روحى سوى الله غاية فتم الهدى للروح والقلب والحس

(١) الفتخاء : لينة الجناح مسترخية المفاصل .

وإن رفع المثرون عجبا رءوسهم ... رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى
وتوجت بالقرآن نفس عقيدة ... أصون بها نفسى عن الزيغ والدس
وإن شرب الناس الطلا وتمايلوا ... فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
ولم أعشق الدنيا .. فتلك مجازة ... تهيئ للأخرى وفى فوتها عرسى
إذا رضى الرحمن عن قلب عبده ... جرت مركب الأقدار معه على اليبس

هدف الأمة المسلمة:

إن همة المسلمين معلقة بالثريا :

لا يطلبون زعامة ..

ولا يراوغون كالثعلب ..

ولا يتلونون كالحرباء ..

لا يطلبون جاها .. ولا مالا .. ولا سمعة ..

ولكنه « فضل الله ورضوانه » إنه غايتهم الكبرى ..

والتى شدوا إليها الرحال .. عن طريقها .. بحسن العبودية

لواهب العزة سبحانه وتعالى :

﴿ تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾

إن الغايات الصغيرة لا تلهيهم عن الأهداف الكبيرة ..

إنهم يخدمون الدين .. ولا يستخدمونه !

ومطلبهم الأسنى :

أن يظهر الدين .. لا أن تظهر أشخاصهم بين الناس !!

إنهم عالميون فى نزعاتهم : مرتبطون بالكون .. وبالمكون سبحانه وتعالى ..

فكان لهم بهذه العالمية وجود أرحب فكانوا أرهب لأعدائهم ..

ولم يكن هذا الإرهاب مقصودا لذاته ..

ولكنه تخويف الأعداء حتى لا يطلقوا رصاصة ..

حتى تحفظ دماء الإنسان .. حيثما كان هذا الإنسان ..

وكيفما كانت عقيدته .. من أجل ذلك كانوا فى سلام مع ربهم .. ومع أنفسهم .. ومع الناس ..شع ذلك كله نورا على وجوههم فظهروا أتقياء ..

مؤثرين بملامحهم الهادئة ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾

يقول الرازى :

وهنا لطيفة :

وهى أنه تعالى قال فى حق الراكعين الساجدين أنهم :

﴿ يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾

وقال :

﴿ مغفرة وأجر عظيما ﴾

بمعنى أن لهم أجرا .. ولم يقل سبحانه : لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل .

وذلك :

لأن المؤمن عند العمل .. لم يلتفت إلى عمله . ولم يجعل له أجرا يعتد به . فقال :

لا أبتغى إلا فضلك .. فإن عملى نزر . لا يكون له أجر .

والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل . وسماه أجراً .. إشارة إلى قبول عمله . ووقوعه الموقع .

شهادة الكتب لهم :

ذلك .. مثلهم فى التوراة ..

﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾

إنهم :

كنبات : رقيق .. ضعيف .. متفرق ..

ثم يتكامل .. ويستوى على عوده .. يعجب الزراع :

الفرخ .. أو البرعم : يقوى العود ..

والساق يقويه ..

لا فضل لأحدهما على الآخر :

الكبير .. يحنو على الصغير ..

والصغير .. يحترم الكبير

ليس هناك فرد أربى من فرد .. إلا بمقدار ما يؤدى دوره المنوط به .

الكل يحيا .. بحياة واحدة ..

ومع أن لكل مسلم حياته الخاصة .. وشخصيته المتميزة .. إلا أنه يمد بحر الأمة بشخصه .. وفى النهاية يستمد منه !

وهكذا :

يتنامى البرعم .. تتكاثر الأمة .. وتقوى .. وتتعاون

ثم تتحد ..

وبهذا كله أغاظوا الكفار مرتين :

مرة بالشدة عليهم

ومرة بالتراحم

وأمتنا اليوم مطالبة بأن تسير فى نفس الاتجاه .. لتحقق نفس الغاية .

أما بعد :

فما أصدق ما قال الشاعر المؤثر إخوانه عن نفسه .. والمتحرر من هواها رحمة بهؤلاء الإخوان وتقديرا لهم .

يقول :

ما أبالى إذا حملت عن الإخوان ∴ ثقلى ودنت بالتخفيف

ورفضت الكثير من كل شئ ∴ وتقنعت بالقليل الطفيف

ورآنى الأنام طرا بعينى ∴ زاهدا فى وضيعهم والشريف

أنا عبد الصديق ما صدق الود ∴ وبعض الأقوام عبد الرغيف

من ملامح المنهج الإسلامى
فى معاملة الناس

يقول الحق سبحانه :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (١)

تمهيد :

قال عكرمة :

لما نزلت هذه الآية الكريمة . قال عليه السلام : يا جبريل .. ما هذا ؟

قال :

يا محمد : إن ربك يقول : هو :

أن تصل من قطعك . وتعطى من حرمك . وتعفو عمن ظلمك

قال أهل العلم :

تفسير جبريل مطابق للفظ الآية :

لأنك لو وصلت من قطعك .. فقد عفوت عنه .

وإذا آتيت من حرمك .. فقد آتيت بالمعروف .

وإذا عفوت عمن ظلمك .. فقد أعرضت عن الجاهلين (٢)

أهمية الآية الكريمة :

وهذه الآية الكريمة مشتملة على مكارم الأخلاق .. التى لابد منها لضبط أساليب التعامل مع الآخرين .. على وفق روح الإسلام الداعية إلى الإحسان ..

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

(٢) عن الرازى . ج ١٥ / ١٠١ .

****

حتى مع الحيوان .. فضلا عن الإنسان . والأثر يقول :

خير الناس أنفعهم للناس

ذلك بأن الإنسان لم يخلق ذاته .. ويترتب على ذلك أنه :

لم يخلق لذاته .. ولكن خلق للآخرين .

والذى يعتزل الحياة أو مدخل .. خير منه ذلك المؤمن . الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم .

أصناف المعاملات :

ويقسم العلماء أساليب التعامل إلى قسمين :

أولا : قسم تجوز فيه المسامحة . ويحمد فيه التساهل .. وهو ما يتعلق بحقوقك أنت لدى الناس : مالية كانت أو أدبية .

وقسم لا تجوز فيه المسامحة لأنه متصل بحقائق الدين وأمن المجتمع .

أما عن حقوقك :

فأنت مطالب بأن تأخذ العفو :

أن ترضى بما تيسر من أخلاق الناس :

أ - ترفق بهم .

ب- تدعوهم إلى الخير .. باللطف واللين .

جـ- أن تترك التشدد معهم ..

إنك قد تكون الأغنى مالا .. والأقوى أعصابا ..

ولكن فى الناس : الفقير .. وضعيف الإرادة ..

فلا تحاول أن تعاملهم على نحو يكلفهم مالا يطيقونه ..

ارض بما يكون منهم غير ملحف ولا متعنت .. واحمد الله تعالى الذى عافاك مما ابتلى به سواك . واجعل تساهلك معهم زكاة منك .. حيث قد ملكت النصاب : غنى .. وصبرا .

أما إذا تعلق الأمر بحقائق الدين .. فذلك مما لا يجوز التسامح فيه .. بمعنى:

أن تأمر غيرك بالمعروف .. حتى توسع رقعة الخير .. فى الوقت الذى يتراجع فيه دعاة السوء إلى جحورهم .. وتبقى كلمة الدين غالبة .

صعوبة المرتقى :

نتساءل :

لكن .. ما معنى أنك تأمر غيرك بالمعروف ؟

معناه :

أنك تحاول اقتلاع عادة مرد عليها زمنا ..

وأن تنشئ مكانها .. عبادة يرقى بها ..

وإذن .. فالتكيف .. مكلف فهو صعب !

ويترتب على ذلك :

أن يشغب عليك المأمور الذى تريد حياته .. ويريد قتلك !

وعندئذ .. فلابد من الصبر .. الذى يفرض عليك السكوت أمام هجمة الجاهلين الذين يتحرشون بك .

إنه مجرد السكوت .. تفويتا لغرض الجاهلين الذين يريدونها معركة تشغل الداعية .. حتى لا يتفرغ لمهمته الكبرى فى هداية الناس .

وذلك شأن المؤمن دائما :

أن يقول كلمته ويمضى .. ولا يجارى السفهاء .. حتى لا يشفى بالمجاراة غيظ قلوبهم ..

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ الفرقان -٧٢ .

بل إن اطراح اللغو ملكة فى المؤمنين تزين لهم أن يتجاوزا سفاهة المغرضين وذلك فى قوله تعالي :

﴿والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ المؤمنون -٣ .

خط الدفاع الأخير:

ويبقى الشيطان الرجيم خط الدفاع الأخير . لدعاة الشر :

فالداعية العافى .. المعرض عن لغو القول .. لاشك أنه يمر بلحظات عصيبة . إنه واقع تحت ضغوط من نفسه ثقيلة .

فهو وإن لم يقابل العدوان بمثله .. لكنه على أى حال بشر ..

ومن ثم فدماؤه تغلى .. وأعصابه توشك أن تنفلت .. لكنه يضبطها ..

ويعنى ذلك أنه يعيش لحظة ضعف ..

ومن ثم .. فلا جرم ينتهزها الشيطان فرصة ليضرب ضربته فى هذا الوقت الملائم .. وفى لحظة الضعف الإنسانى .

من أجل ذلك يجئ قوله تعالى :

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله .. ﴾

يجئ فى الوقت المناسب آمرا الداعية أن يواصل سيره المبرور حتى يفوت على جبهة الباطل غرضها فى شخص كبيرها :

الشيطان الرجيم .

ومع التسليم بأن الانتصار على الشيطان صعب فى هذه اللحظات ..

لكن المسلم مكلف أن يفتح بصره وبصيرته وسوف يجد بين يديه وعلى الطريق روادا من أمته .. حاول الشيطان أن ينال منهم لكنه لا يملك معهم إلا مجرد الدوران حول حصنهم الآمن ولم يأخذ من تقواهم إلا كما تأخذ الريح العاصف من الجبل الأشم .. وذلك قوله تعالى .. بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب

يقول الله تعالى :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (١)

صلة الآية بما قبلها :

يقول المفسرون :

لما أمر الله تعالى عباده بالتكبير .. وبالشكر بين سبحانه أنه بلطفه ورحمته قريب من العبد . مطلع على ذكره وشكره .. فيسمع نداءه ويجيب دعاءه ولا يخيب رجاءه .

ثم إن موقع الآية من السياق شاهد بأدب من آداب الدعاء .

يستنزل العبد به الإجابة وهو :

تقديم الثناء .. على الدعاء .. كما فعل الخليل عليه السلام

فيما حكاه القرآن الكريم عنه .. لما قال :

﴿الذين خلقنى فهو يهدين .. إلى قوله والذى أطمع أن يغفر لى ...﴾..

ثم . ومن بعد هذا الثناء يجئ الدعاء فى قوله تعالى :

﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾ (٢) الرازى

وكان ذلك رحمة منه تعالى بعباده :

[تعليما للمسألة . وتنبيها على حسن الطلب]

---

(١) البقرة - ١٨٦ .

(٢) راجع تفسير الرازى .

إعجاز وإيجاز:

وعلى تعدد أسباب نزول الآية الكريمة .. إلا أنها دليل إعجاز القرآن .

وإيجازه :

(فإذا كانت إجابة عن سؤال من سألوه : أين ربنا ؟ صح الجواب :

بإنى قريب :

وإن سألوه : هل يسمع ربنا دعاءنا ؟ صح الجواب :

بإنى قريب ..

وإن سألوه : هل يعطينا ربنا مطلوبنا بالدعاء .. صح الجواب :

بأنى قريب .

وإن سألوه : إن أذنبنا .. فهل يقبل ربنا توبتنا ؟ صح الجواب :

فإنى قريب .. أى : بالنظر إليهم والتجاوز عنهم) (١) .

الرحمة السابغة

ويعنى ذلك أن الله تعالى قريب من عباده : يجيب دعاء من دعاه

لا محالة ..

لكن .. هل كان الداعى أهلا لهذه الإجابة .. أم لا ؟ تلك هى المشكلة .. فالإنسان هو مبدأ التغيير .

ومن هنا قالوا :

ليس هناك عام أكثر مطرا من عام ..

ولكن الذى يحدث هو :

---

(١) النيسابورى .

أن الله تعالى يسوق السحاب ليمطر أرضا .. ويحرم أخرى .. وكلاهما مستغيث ..

ولكن الأولى : أحس أهلها بالنعمة .. فشكروا ..

فأحيا الله أرضها بالمطر ..

بينما تشعر الأخرى : بأن حرمانها من المطر إنما كان لذنب اقترفته ..

فلعلها أن تتوب

من إشارات القرآن الكريم

ونذكر هنا قوله تعالى :

﴿ ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين .كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون﴾ (١)

فيوم الدين حق .. لكن العناد يلوى أعناقهم عنه ..

والآيات أيضا حق .. ولكن صدأ المعاصى يمنعهم من رؤيته .

ويلاحظ التعبير بقوله تعالى :

« يكسبون» .. وليس «يكتسبون»

تشعر بأن المعاصى صارت زادهم اليومى .

يقترفونها بلا معاناة .. وبلا مقاومة ..

فأين مع هذه السدود يكون منهم إيمان ..

وكيف يصعد لهم عمل منعوا صعوده .. بصدودهم ؟!

(١) المطففين : ١٠-١٤ .

وصدق الله العظيم :

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ﴾ [(١)]

ولكن المؤمنين ما يفتأون يتضرعون .. وعلى ربهم يتوكلون .. وإنهم بفضل الله واصلون

إلى ما يؤملون . ماداموا يدعون ويتضرعون :

من لطائف الآية :

يقول النيسابورى بيانا لذلك :

قال تعالى ﴿ فإنى قريب ﴾ دون أن يقول : فقل إنى قريب كما قال فى سائر الأسئلة والأجوبة .

يسألونك عن الروح ..

يسألونك ماذا ينفقون ..

يسألونك عن الجبال ..

يسألونك عن الساعة ..

فكأنه سبحانه وتعالى يقول :

عبدى :

أنت إنما تحتاج إلى الواسطة فى غير وقت الدعاء .. أما فى الدعاء .. فلا واسطة بينى وبينك .

---

(١) الأنعام ٤٣ .

وأيضا فى مقام السؤال قال :

﴿ **عبادى** ﴾

وهذا يدل على أن العبد له .

وفى مقام الإجابة قال :

﴿ **فإنى قريب**﴾

وهذا يدل على أنه للعبد .

وأيضا : لم يقل : العبد منى قريب .. بل قال :﴿ إنى قريب منه﴾ إشارة إلى أنه ما للتراب ورب الأرباب ؟!!

وإنما يصل من حضيض الإمكان الذاتى . إلى ذروة الوجود والبقاء .. بفضل الواجب وفيضه]

فليستجيبوا لى

وكأنه تعالى يقول (١) ..

أنا أجيب دعاءك . مع أنى غنى عنك مطلقا .

فكن أنت أيضا مجيبا لدعائى .. مع أنك محتاج إلى من كل الوجوه .

فما أعظم هذا الكلام .

وفيه دقيقة أخرى وهى :

أنه تعالى لم يقل للعبد : أجب دعائى .. حتى أجيب دعاءك ..

لأنه لو قال ذلك .. لصارت إجابته تعالى معللة بدعاء العبد .

مع أن إجابته تعالى فضل منه سبحانه ابتداء .

(١) نقلا عن الرازى

وأن إجابة الرب فى هذا الباب إلى العبد متقدمة على اشتغال العبد بطاعة الرب

وكما يقول صاحب الظلال :

(إنها آية عجيبة :

آية تسكب فى قلب المؤمن النداوة الحلوة . والود المؤنس .

والرضى المطمئن .. والثقة .. واليقين ..

ويعيش منها المؤمن فى جناب رضى . وقربى ندية .

وملاذ أمين وقرار مكين ..)

أما بعد :

فإن الأمر على ما فعل مالك بن دينار :

فالله تعالى لم يقل : فقل لهم إنى قريب ..

وإنما قال سبحانه :

﴿فإنى قريب ﴾

المهم أن تكون قريبا من الله بالإحسان .. ومفهوم ذلك الإحسان هو ما رسمته الآية الكريمة من معراج الكمال وهو :

أ- فليستجيبوا لى .

ب- وليؤمنوا بى .

جـ- وعندئذ فهم على رجاء رشد رشحوا له بهذه الاستجابة وهذا الإيمان ..

وقبل ذلك كله :

﴿إذا دعان﴾

إذا تحقق الدعاء .. على شرط الإسلام

وهكذا **المؤمن** دائما والذى لا يخلو من حزن أو فرح .. كإنسان . ولكنه يعتمد على ربه أبدا :

يجعل : حزنه .. صبرا .. وفرحه شكرا .. بينما **المادى :**

فرح فخور .. ومن ثم فهو فى غم موصول لأنه موكول إلى نفسه :

اشتكى التلميذ إلى شيخه دفعة الغضب .. والتى تدخل به فى الباطل أو تخرجه من الحق ..

فقال له الشيخ :

إذا انتقمت لنفسك ممن أغضبك .. تجاوزت الحد ..

وإذا كففت .. أضررت بنفسك .. فكنت ظالما فى صورة مظلوم ..

وهكذا كل من يكله الله تعالى إلى نفسه ..

والموقف الأرشد هو : الصبر ..

ثم أن تلجأ إلى ذكر الله تعالى .. والذى سيجعل الله تعالى به بردا وسلاما .. وكف عنك بأس الشيطان الذى يصير للمسلم حصنا :

ومن صور الذكر

ما رواه أنس رضى الله عنه :

من قال إذا خرج من بيته :

باسم الله ..

توكلت على الله ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له

هديت ..

وكفيت ..

ووقيت

وتنحى عنه الشيطان [١]

وناهيك بهذه الجائزة من الرحيم الرحمان .

(١) رواه أبو داود والترمزى والنسائى .

حسن الظن بالله تعالى .. وبالناس

لكل صفة من صفاته تعالى - كما يقول ابن القيم - واجبات فى ذمة العبد :

فالله سبحانه : عليم .. يعلم النجوى : السر وأخفى ..

والإيمان بهذه الصفة يفرض على المكلف :

حفظ لسانه .. وخطرات قلبه .. ثم يوظفهما فيما يحبه تعالى .. مجتنبا ما نهى عنه سبحانه ..

وعلم المكلف بأن الله تعالى :عظيم .. جليل .. يشمر فى قلبه الخضوع له تعالى .. والاستقامة على طريقه المستقيم ..

ومعرفة العبد بأن الله تعالى : غنى .. جواد .. عفو غفور .. يفرض عليه حسن الظن به سبحانه .. والرجاء فيه .. والطمع فى رضاه ..

وإذن .. فإن لحسن الظن بالله تعالى ثمرات طيبة . تنعكس على المسلم بشرا .. وتفاؤلا .. وإقبالا على الحياة بصدر منشرح .. إيمانا بجوده تعالى وعفوه ..

وفرارا من اليأس الذى يقيد الخطى .. فلا تنطلق إلى المعالى .

أهمية حسن الظن بالله عزوجل

قال العلماء :

على قدر حسن ظنك بربك . ورجائك فيه . يكون توكلك عليه .

ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق :

أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه ..

إذ لا يحسن التوكل على من ساء ظنك به . ولا التوكل على من لا ترجوه[١]

---

(١)مدارج السالكين / ١٢٦/ج ٢ .

وقد علمنا القرآن ما يحسن الظن من أثر فى واقع المسلم :

فى قوله تعالى :

﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ [١]

فالذين أحسنوا الظن بربهم :

خفف عنهم مشاق العبادة ..

ووقع المصائب ..

ثم حجزهم عن السيئات أما الذين ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾[٢]

فقد تخبطوا .. وتمزقوا .. بسبب نفاقهم .. وسوء ظنهم بربهم

﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم : أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [٣]

وحين يكون حسن الظن بالله خلق المسلم .. فإنه يؤدى إلى حسن الظن بالخلق .. وهم عيال الله تعالى :

فالمفروض أن يظن ﴿ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾

إنهم نفس واحدة .. فكيف يعادى بعضها بعضا ..

ثم إن المسلمين مأمورون باجتناب كثير من الظن ..

لأن بعض الظن إثم .. أعنى قد يكون ظلما ..

واحتياطا .. وحفاظاعلى كرامة المسلم .. يجب أن نتنازل عن كثير من ظنوننا .. ليسلم لنا إيمانا .. وتسلم أعراض اخواننا .

---

(١) سورة البقرة ٤٦ .
(٢) سورة آل عمران ١٥٤ .
(٣) سورة فصلت ٢٢ .

أما بعد :

فـيكفى من يحسن الظن بالله تعـالى .. يكفيه شرفا أن يحسن الله سبحانه ظنه به .. وكفى به جزاء كريما :

ويروى فى فى ذلك :

أنه كان رجل ينصح غلمانه بالتجاوز عن المعسر . لعل الله أن يتجاوز عنه .

فلما هلك .. قال الله تعالى له :

هل عملت خيرا قط ؟

قال : لا ..

إلا أنه كان لى غلام .. وكنت أداين الناس .. فإذا بعثته يتقاضى قلت له :

خذ ما تيسر . واترك ما يعسر .

وتجاوز .. لعل الله يتجاوز عنا ..

قال الله تعالى له :

قد تجاوزت عنك !

المحافظة على البيئة

يقول تعالى :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [(١)]

والمعنى : جعلكم عمارها ..

وكما خلق الله تعالى الناس أحرارا .. فقد خلقهم فى نفس الوقت عمارا ..

وقد كان ملوك فارس يكثرون من حفر الأنهار . وغرس الأشجار .

فكانت أعمارهم طويلة .. ولما سأل نبى ربه : ما سبب تلك الأعمار الطوال ؟ أوحى إليه .

إنهم عمروا بلادى .. فعاش فيها عبادى ..

وقد أخذ معاوية فى إحياء الأرض فى آخر عمره فقيل له :

ما حملك عليه ؟ قال :

قول القائل

ليس الفتى بفتى يستضاء به ∴ ولا يكون له فى الأرض آثار

وإذن .. فوظيفة المسلم عمارة الأرض :

بالحفاظ على التربة .. والخضرة .. والماء .. والثروة على اختلاف أنواعها ..

﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ [(٢)]

فالأرض بأصل خلقتها .. مبسوطة .. ممهودة .. مسخرة .. لصالحنا ..

ومن الوفاء لخالقها سبحانه وتعالى أن تظل كذلك ..

---

(١) سورة هود الآية ٦١ .

(٢)سورة الأعراف الآية ٥٦ .

****

ويؤكد هذا الوفاء لخالقها سبحانه وتعالى أن تظل كذلك ..

ويؤكد هذا الوفاء أن بقاء الأرض صالحة .. بكل مرافقها

عائد على الإنسان نفسه بالخير ..

بل علينا أن نحاول ابتكار وسائل رقيها ..

وقبل هذا .. نحن منهيون عن إفسادها ..

ممنوعون :

من إفساد النفوس .. بالقتل ..

وإفساد الأموال .. بالغصب والسرقة ..

وإفساد الأنساب .. بالفاحشة ..

وإفساد العقول .. بالمخدرات .. وتلك هى البيئة الإنسانية

ونحن منهيون كذلك عن إفساد البيئة المادية .. عن التبول فى الماء .. وفى الظل .. وعلى قارعة الطريق .. فرارا من مضاعفات ذلك ..

وأثاره السلبية على الصحة .. والثروة ..

والروابط الاجتماعية

وفى السنة المطهرة ما يجعل من الحفاظ على البيئة واجبا حتميا ومظهرا حضاريا :

فقد أمر صلى الله عليه وسلم بقتل الوزغ .. وهو « دويبة » معروفة ..

وقال : (اقتلوا الحيات كلهن) [1]

---

(١) الطبراني : ٣٨٢/٢ .

ويعلق علماؤنا :

إنها حقا فكرة تقدمية حضارية :

إذ أن بعض الأديان السائدة اليوم تقدس هذه الحشرات وتمنع معتنقيها من قتلها .. فتسبب لهم الأمراض .. مع استنزاف اقتصاد الأمة .. لكن الإسلام الحريص على نظافة البيئة يأمر بتطهير البيوت .. والمساجد والفنادق منها ..

لأن فيها سما ..

فوجب قتلها حماية للإنسان من شرها

أهمية الإخلاص

كل عمل صادر عن الإنسان .. فهو صادر عن قدرته وإرادته :

فالإرادة هى النية الباعثة ..

والقدرة هى الطاقة المنفذة ..

وعلى قدر شرف النية تكون قيمة العمل ..

وعلى قدر الطاقة الفاعلة .. تكون نتيجته ..

وإذن فلابد من النية ..

النية التى تحدد قيمة العمل .. ليكون فى القمة علوا ..

أو فى القمامة سفلا !

ولقد قيل :

(لو كلفنا الله تعالى عملا بلا نية .. لكان من تكليف مالا يطاق)

وقد قال علماؤنا :

١- حديث (إنما الأعمال بالنيات ..) [١] ميزان الباطن ..

٢- وحديث (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[٢] .. ميزان الظاهر..

ولذا قيل :

(هذان الحديثان : يجمعان الدين كله)

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ضرورة الإخلاص

ويحرض الإسلام على خلوص النية ضمانا مؤكدا لقبول العمل ..

يعين على ذلك أن طلاب الدنيا .. حتى وهم يريدون العاجلة ..

لسوف يعجل الله تعالى لهم ما يريد هو سبحانه .. لا مايريدون هم ..

وأيضا لا يعجله إلا لمن أراد ..لا لكل الناس ..

وإذن .. فلابد من إخلاص النوايا . لماذا ؟

لأن الحق غيور .. يرفض الشركة .. فليس عن يمينه ولا عن شماله حق .. وإنما هو المقصود أولا وأخيرا ..

من بركات الإخلاص

وفى حديث التنويه بالإنفاق سرا :

حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ..

وفى رواية (حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله) [١]

أى أن المنفق هنا : يعطى بالشمال .. مبالغة فى السرية .. من حيث لا ينتبه أحد إليها فى عملية الإنفاق ..

ومن بركات هذه السرية .. أى هذا الإخلاص .. من بركاته :

أنه فيما يتعلق بالمعطى : يخلصه من الرياء

وبالنسبة للآخذ .. يعفيه من الحرج ..

وبالتالى يتخلص المجتمع من خلال هذه النماذج الطيبة

من عيوب تعجل بانهياره .. ليمضى على الطريق صفا واحداً ..

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمزى والنسائى وأحمد .

ذلك بأن المعطى متى برئ من الرياء سوف يظل عطاؤه موصولا ..

وإن لم يره أحد .. ولم يشكره أحد ..

كما وأن التخلص من الإحراج .. فرصة تنبسط بها نفس الآخذ الذى يحب المعطى الذى صان كرامته .. فتعامل مع قلبه قبل التعامل مع جيبه ..

وسوف يقبل على عمله .. فيكثر النتاج .. ويتقدم المجتمع ..

وعندما يتوارى الإخلاص .. فلا مناص .. لا مناص من نكسة تصليب الفرد والمجتمع ..

عندما ينطلق الدرهم من جيبك ..

بلا هدف .. وبلا نية ..

ما النتيجة ؟

النتيجة : ضياع الحال .. والمآل .. ووقوف الحق أعزل مجردا بلا سند من أبنائه :

فما أنفقته من مالك فى الباطل .. فقدته غدا حين تريده للحق ..

وذلك هو الخسران المبين.

الإخلاص فى مجال التطبيق

انطلق الجندى المجهول فى سجوة الليل .. فنقب فى حصن العدو نقبا .. كان سببا فى انتصار المسلمين ..

فلما سأل عنه القائد آمرا بإحضاره قال :

صاحب النقب يطلب منكم ثلاثا :

١- ألا تسودوا اسمه (أى لا تكتبوه للخليفة)

٢- وألا تعطوه (يعنى يرفض الجائزة)

٣- وألا تسألوه عن اسمه (يرفض الشهرة)

فلما ووفق على شروطه قال لهم :

أنا صاحب النقب !!

فانظر كيف يفعل الإخلاص بصاحبه حين يحمله على أن يرفض الدنيا .. لأن وجهته الآخرة ..

وإن الدار الآخرة لهى الحيوان .

وكان هذا الزهد فى الدنيا مردودا إلى سببه وهو :

أن من أراد بعمله الدنيا .. وكله الله تعالى إلى نفسه فضاع .. وأضاع ..

وفى هذا يقول أبو يوسف رحمه الله :

(ما جلست مجلسا من مجالس العلم أريد الناس .. لم أقم منه حتى أفتضح)!!

وتأمل هذا العقاب السريع .. وفى نفس المجلس ..

وهو مظهر من مظاهر رحمته بالمخلصين من عباده .. حتى يكون العقاب

السريع رادعا يردهم إلى الطريق المستقيم كما كانوا ..

قال ابن مسعود رضى الله عنه :

[إنى لأحسب الرجل ينسى العلوم بالخطيئة يرتكبها .

ذلك بأن العلم شرف ونبل .. والخطيئة خسة ..

ولا يجتمعان فى قلب واحد !

ولقد كان **إبراهيم النخعى** واحدا من طليعة المخلصين .. والذى كان إخلاصه أثرا من دعوته صلى الله عليه وسلم لقومه :

والذى دعالهم قائلا :

اللهم بارك فى النخع [١]

ولئن أجهد ابراهيم جسده فى السهر عابدا .. راكعا وساجدا ..

فقد كانت سعادة روحه فى هذا الجهاد الموصول

ومن أقواله :

كفى بالمرء إثما أن يشار إليه بالأصابع فى دين أو دنيا .

وحين يرفض الشهرة رغم توفر أسبابها فقد كان من تمام رسالته أن يوصى تلاميذه بذلك فقال :

من جلس ليجلس إليه .. فلا تجلسوا إليه !!

ذلك بأنه صائد ماهر .. أو ماكر .. وما هذه وظيفة العلماء ..

ألا وإن الرجل ليلقى الكلام ليس فيه بريق ولا بلاغة ينوى به الخير .. فيلهم الله الناس ليقولوا : ما أراد بكلامه إلا الخير ..

---

(١) أورده ابن مسعد فى الطبقات الكبرى ٧٧/١.

في الوقت الذى يوشى آخر كلامه بالمحسنات البديعية يريد به الدنيا .. فيلهم الله الناس أنه لا يريد الخير !!

وقد كان يسأل السؤال : وتتوفر لديه معلومات غزيرة فى الجواب .. لكنه يقتصر على جواب السؤال فقط .. ولا ينتهزها فرصة يظهر فيها علمه رياء وبطرا.

وحتى وهو يقرأ القرآن كان يغطى المصحف لو داهمه ضيف وافد ..

وتمت نعمة الله على هذا العالم المخلص حتى أوصى قبيل وفاته وصية نقولها نحن بلغة عصرنا :

وصى بألا ينعوه فى الصحف كنعى الجاهلية .. وليكن ثمن النعى كافلا ليتيم.. وقال :

واكتموا خبر موتى .. ولا تحددوا مكان الجنازة .. ولا زمانها ويكفى أربعة أرجو أن يغلقوا على الباب .. ثم قال :

وإن استطعتم أن يكون آخر كلامى : لا إله إلا الله عزوجل

وسلام عليه فى الخالدين .. المخلصين .. المخلصين .

الصبــر

يقـول تعـالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعـون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهـه ولا تعد عـيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيـا . ولا تطع من أغـفلنا قلبـه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ (١)

نلاحظ حول هذه الآية ما يلى :

١- رفض بعض الأغنياء أن يجلسوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يطرد من حوله من الفقراء أمثال بلال وخباب .. فنزلت الآيات الكريمة

٢- وتتضمن الآيـة تحريض الرسول على صحبة الكادحين الذين تحملوا معـه تبعات الكفـاح .. وفـجروا مـعـه الثـورة على هذا اللون من التكبر .. وكـان من أبرز خصائصهم ارتباطهم بالله دائما .. تحرى وجهه الكريم فى كل ما يعملون .. لا من أجل مصلحة شخصية تتعلق بالذات ..

٣- أن يمسك الرسول نفسه حتى لا تتطلع إلى ما يرفل فيه هؤلاء الأغنياء من نعيم قـد ينسبـه ذلك الرعـيل الأول من المؤمنين بـه .. وكـأنما يريد الحق سـبـحـانه أن يكشف عن قـوة إغـراء الحـيـاة التى توشك أن تلفت الرسـول إليـهـا .. لولا أن تداركـه رحـمـة من ربه .. وذلك اعـتـراف بأن زهرة الدنيـا غـلابة .. على نحو يفرض علينا حسن عـلاج المفتونين بها .. فلا نعـاملهم كملحدين أو فـارين من الحق .. إلى الباطل..

٤- ويبين النص مـباشرة القـيـمـة الحقيـقـيـة لمتاع الدنيـا .. إسـهـامـا فيـه فى حسن التعامل معها ببيـان أنها .. زينة .. طلاء ظاهرى .. ثم إنها « دنيا » تعافها النفوس المتطلعة إلى الكمال .

---

(١) الكهف : ٢٨ .

٥- الاحتفاظ بالكيان .. وقوة الشخصية إزاء هؤلاء المتآمرين على الدعوة الجديدة .. بحيث تكون وحدة صف المجاهدين ضرورة إزاء هؤلاء الذين انفرط عقدهم .. فصاروا حبات تائهة فوق الرمال !

٦- هؤلاء الأغنياء المتآمرن .. يحاولون بهذا المنطق أن يسرقوا الثورة التى لم يريقوا من أجلها نقطة دم واحدة .. من أصحابها الحقيقيين الذى ثبتوا دعائمها .. ورفعوا راياتها ..

٧- الإعلان عن دعوة الحق بلا مواربة :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر ﴾[1] .. ومن كفر فلابد أن يلقى جزاءه عادلا .. إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » من حيث أنه انحرف عن الخط المستقيم .. وحاول أن يسير على هواه ولو كان ذلك ضد مصلحة الدين والوطن .. ومن هنا كان « ظالما » وإذا كان الظلم هو : وضع الشئ فى غير موضعه .. فهو من الظلم فى القمة فى الوقت الذى يريد أن يقتعد مكانا لا يملكه .. ولم يدفع له ثمنا .. ويطرد صاحبه الحقيقى .. وصاحب المصلحة الحقيقية فى بقاء الدين ثورة على أمثاله من المعرضين .

٨- عالمية القرآن التى تسير مع الزمان الممتد .. وتستوعب الحياة كلها حين لا تحكم بالظلم فقط على من كانوا سبب نزول الآيات .. لكنها تصم به كل من سار على دربهم ..

٩- ويظهر ذلك أيضا فى الآية التالية حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[2]

فالآية لا تقول مثلا :

إنا لا نضيع أجرهم .. أو عملهم ..

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الكهف : ٣٠.

لكنها تفتح الباب أمام كل راغب فى العمل .. فى مستقبل الأيام ليدخل فى القضية كل إنسان إلى يوم القيامة .. كل إنسان يعمل « عملا » صالحا .. مجرد عمل ولو بدا أمام الناس صغيرا .. نكرة فى عرف الناس ذلك بأن الله تعالى لا يحكم على العمل بمقدار الدعاية له .. ولكن بمقدار ما وراءه من حسن نية ورغبة فى الخير ..

كما يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الشورى :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ٤٣

ويقول عزوجل فى سورة لقمان :

﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ ١٧

إذا كان القرآن الكريم المجيد .. ذا مجد وشرف على سائر الكتب ..وإذا كان وافر العطاء .. كريما .. يمنح من أقبل عليه أسراره ويعطى على الحرف عشرا .. فإن لدراسة قبسا من هذا الكرم وهذه المجادة .. وذلك العطاء .

ولن يستحق هذا الشرف أناس اتخذوا القرآن مهجورا .. فوقف عند حلوقهم ولم يتجاوز عقائرهم .. ليستقر هناك فى القلب هداية ونورا ..

لكن الأحق به من حاول أن يعقله .. متخذا من أهل الذكر من المفسرين حاديا ودليلا ..

ها نحن أولاء نطوف حول آياته عسى أن نكون من الواصلين .. أو الواقفين على أعتاب الواصلين : ننقل عنهم .. ونتأس بهم . ليظل حبل العلم موصولا .

وحين نتأمل الأيتين الكريمتين بصفة إجمالية نرى :

أن فيهما تحريضا للمسلم ليظل صلب الإرادة صادق العزيمة فى مواجهة

الأحداث الخطيرة فى حياته .. وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى :

﴿ .. من عـزم الأمـور ﴾ أى مما قطعـه الله تعالى قطع إيجاب . ولا بد من عقد العزم عليه .

ولكن ما هى تلك الأمور التى ندب الإنسان لحشد كل طاقاته لاحتوائها ؟

إنها المشار إليها باسم الإشارة « ذلك » فى الآيتين الكريمتين ..

ونتساءل : هل الأمور المشار إليها فى سورة « لقمان » من جنس الأمور المشار إليها في سورة « الشورى » وفى مرتبتها ؟

والجواب : بل هما مختلفتان :

فالأمر المراد عقد العزم عليه فى سورة لقمان :

الصبر على ما يصيب الإنسان من بلاء يمنحه الله تعالى به ..

فهو إذن الصبر على : ما يأتى به قدر الحق تعالى ..

أما الأمور المراد عقد العزم عليها فى سورة الشورى فهى :

الصبر على البلاء الواصل إلى المؤمن من البشر كما يفيد سياق الآيات هناك..

وهى قوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ .. ثم ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه .. ﴾

فإذا عدنا إلى أسلوب الآيتين مرة أخرى .. لنرى كيف واجه السياق هذا الاختلاف .. وكيف استجاب القرآن لطبيعة الإنسان .. فلم يسو بين رد الفعل أمام المصيبة .. الآتية من الخالق سبحانه .. وبين رد الفعل إزاء المصيبة التى كانت عدوانا من الإنسان على أخيه الإنسان ..

ولقد تم ذلك التوكيد فى آية الشورى هكذا :

﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾

ثم الإستغناء عنها فى آية لقمان هكذا :

﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾

ذلك بأن المصيبة إذا وقعت قضاء وقدرا .. تقبلتها النفس برضا .. لأنها من تقدير العزيز العليم ..

وإذن .. فلا يحتاج الموقف إلى توكيد أمر .. انتهت النفس من قرارها فيه ..

أما المصيبة الآتية من الإنسان .. فمما لا تتقبله النفس .. ولو تقبلته .. فبصعوبة .. وإلى حين .. فكان لابد من زيادة لام التوكيد تثبيتا للفؤاد المعنى .. المجروح .

ومن أجل ذلك لم يقتصر النص فى آية الشورى على الصبر .. وإنما قال تعالى: ﴿ ولمن صبر .. وغفر ﴾

أى أن المؤمن مأمور إلى جانب الصبر .. بالغفران فلا يرد الاعتداء بمثله وإذن .. فما أشق التكليف ..

ومن الحلول العملية هنا :

إذا واجهتك الصعاب يوما .. فتجاهلها ..

فإن لم تستطع .. فترفع عنها ..

فإذا لم تستطع .. فاسخر منها !

الإحسـان إلـى الفقـير

الإحسان إلى الفقير لا يتم فى الإسلام عاطفة عابرة .. تتحرك لحظة .. ثم تنطفئ !

ولكنه الإحسان النابع من قيمة أصيلة هى الأخوة الجامعة ..

تنشئها الصدقة : زكاة أو تطوعا ..

فالصدقة على الغير .. تنقل المعطى من دائرة الإحساس بوجوده الخاص .. إلى دائرة أرحب هى : الإحساس بوجوده العام ضمن مجتمع .

ويعنى ذلك أنها تعالج مشكلة اجتماعية وهى عادة اقتناء أشياء كثيرة لا حاجة للإنسان بها .. لينتهى الأمر بالمسلم إلى :

بذل الفضل من ماله ..

ثم إمساك الفضل من كلامه !

لكن .. من هو الفقير الجدير بإحساننا ؟

إنه كل محتاج .. وإن كان على غير ديننا ..

فالله تعالى يقول :

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما . وأسيرا .. ﴾ [١]

والأسير هنا هو عدونا المحارب .. وهو ليس على ديننا ..

وقد رأى عمر رضى الله عنه عجوزا .. يهوديا .. وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. فلم يكتف فى نجدته بالتوجع أو التسرية عنه .. ولكنه فرض له راتبا فى بيت المال .. قائلا :

أكلنا شبيبته .. ثم تركناه شيخا

(١) الإنسان : ٨ .

ثم تقول الآية الكريمة بعد ذلك :

﴿.. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ [١]

وهنا يظهر بعد آخر من أبعاد الإحسان إلى الفقراء فى الإسلام :

إنه إذا كان حريصا على المساعدة المادية .. يحفظ بها «قالب » الفقير..

فإنه أحرص ما يكون على « قلبه» .. على كرامته ..

لذلك يعلمنا أن نجبر خاطر الفقير بقولنا :

نحن لا نطعمكم فخرا أو رياء .. وإنما هو حقكم ..

وحقكم المعلوم .. يعود إليكم عن طريقنا ..

لا نريد منكم جزاء .. ولا شكورا .. لأننا لم نقدم إليكم شيئا من عندنا ..

وإنما هو رزق الله تعالى .. نعود به على عياله ..

فالشكر لكم .. لأنكم قبلتموه !

ألا إن الفقير لأحوج إلى الكرامة .. منه إلى المساعدة المادية ..

والذين ينفقون .. ثم يمنون عليه .. كان من الخير لهم أن يطيبوا له الكلام .. بدل هذا الملام ..

وصدق الله العظيم الذى يقول :

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ﴾.[٢]

---

(١) الإنسان : ٩ .

(٢) البقرة : ٢٦٣ .

الفصل الثانى

الإنسان .. فى هدى القرآن

- بين النجاة والخسران.
- من الأدلة على وجود الله تعالى.
- دليل الخلق.
- دليل الرزق.
- من آيات الله فى الأرض
- أم من يجيب المضطر إذا دعاه !!!
- إن ربك لبالمرصاد.
- الزاد الباقى.
- وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.
- من توجيهات القرآن.
- أهمية العلم.
- من دروس التربية.
- نفسك : إن لم تشغلها بالحق .. شغلتك بالباطل.
- القرآن وحرية الإنسان.
- آمالنا : بين الواقع والمتوقع.
- غوث اللهيف.
- رجال فوق كيد الشيطان.
- بالأخلاق لا بصخب الأسواق.
- الإنسان فى الآخرة.
- من صفات المنافقين.

****

بين النجاة والخسـران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[١]

عندما ينفض السوق .. يتساءل التاجر عما يمكن أن يعود به إلى آله وعياله.

وعندما يوشك سوق العمر أن ينفض .. فعليه أن يسأل نفسه وبنفس القوة.

ماذا أعددت لنفسك :

ماذا حصلت لتعود به إلى ربك :

﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ [٢]

أسرع وتدارك ما فاتك .. إنها فرصة العمر .. والتى لن تعوض .. فلا تضيعها ..

لقد اقترب للناس حسابهم .. فتدارك مافات .. فلو عشت ألف سنة .. ثم تبت فى اللحظة الأخيرة .. عشت سعيدا إلى أبد الآبدين .

إن كل صباح يطل عليك . كأنما هو بعث ونشور .. وخروج من القبور ..

وكل مساء .. كأنما هو الدنيا .. تولى .. بالموت ..

إن العمر يكاد لينصرم .. فاظفر بما بقى من عمرك .. فهو فرصتك الأخيرة .. التى تستطيع أن تعمرها بصالح العمل .. وهذا ما تؤكده سورة العصر :

لماذا القسم ؟

ولماذا كان «بالعصر» ؟

لأن الله تعالى هو الخالق البارئ المصور .. فله سبحانه أن يقسم بما شاء.. على مايشاء :

---

(١) سورة العصر.

(٢) سورة العلق : «٨» .

تنبيها على أهمية مايقسم عليه ..

ولفتا للأنظار إليه .

وقد أقسم تعالى بالمكان فى قوله سبحانه :

﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض ﴾ [١] :

وهو تعالى يقسم هنا بالوقت تأكيدا لأهميته ..

بدليل قوله تعالى :

﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت .. ﴾ [٢]

فلم يقل مثلا : لأتمتع بمالى .. بل قال :

﴿ فيما تركت .. ﴾

يعنى :

لأسترجع الوقت الضائع.

وحين يقسم تعالى بالصبح إذا تنفس .. فإنما ينبه عباده إلى مافى الصبح من حركة وانفتاح .. وكأنما النهار كائن حى .. يستقبل أشعة الشمس .. بحفاوة واستبشار..

وهو سبحانه حين يقسم بالعصر : فإنما يلفت نظر عباده إلى أن العمر يوشك أن ينصرم .. وصفرة ضياء الشمس عند العصر .. تحكى صفرة الموت الذى يوشك أن يلاقيكم.. فبادروا إلى العمل الصالح .. قبل أن تذهب الفرصة .. ثم لا تعود.

المقسم عليه

والمقسم عليه هنا :

أن الإنسان .. كل إنسان : فى خسر .. المؤمن والكافر ..

---

(١) سورة الأنعام : « ١٢ » .

(٢) سورة المؤمنون : « ٩٩ »،« ١٠٠ » .

كلاهما ظالم لنفسه ..

فمن عصى : فقد نقص رأس ماله .. فهو خاسر . ومن أطاع : فهو كذلك ناقص الأجر :

فالطاعات لاتتناهى .. وهو لم يفعل إلا قليلا منها ..

ثم إن ما فعله من الطاعات كان يمكن أن يؤدى على نحو أفضل مما كان عليه..

وإذن .. فالإنسان .. محكوم عليه بالخسران .. وكل يوم يمضى .. مطروح من عمره ..

فرأس مال العمر .. إلى زوال ..

إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالطاعة .. ثم أكمل غيره بالتواصى بها .

إنا لنفرح بالأيـــام نقطعهـا .·. وكل يوم مضى نقص من الأجل

ثم هو .. فى .. خسر :

أعنى إنه أجرم فى حق العظيم .. لأنه من ناحية أخرى : مقابلة الإنعام بالكفران.

إنه مغمور بالخسران .. غارق «فى» لجته .. فاقد الإحساس بما حوله من آيات دالات على غفلته ..

ثم هو خسران واسع يشمل الطائعين والعصاة جميعا .. وبلا استثناء .

مقارنة

يقول الله تعالى :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ (١)

---

(١) سورة التين : «٤» ، «٥» .

وهنا يقول :

﴿ إن الإنسان لفى خسر .. إلا .. ﴾ [١]

ذلك بأن الآية الأولى تتحدث عن أحوال الجسم ..

والثانية تتحدث عن أحوال النفس ..

ولذا فقد اختلف الترتيب .

والحق هو : كل التكاليف الشرعية

والتواصى بالصبر يعنى :

صعوبة هذه التكاليف .. وضرورة أن يتواصى السائرون على الطريق بالصبر على وعثاء هذا الطريق

بالصبر :

عن المعاصى

وعلى الطاعات .

ثم على الأقدار المؤلمة عبر الطريق .

ذلك بأن الحق ثقيل .. والمحن تلازمه ..

فلذلك .. لابد من التواصى به

ومن بلاغة السورة أن يقول تعالى

« تواصوا » ولم يقل « يتواصون » :

لأن المقام مقام مدحهم بالثبات على الحق . ومجاهدة مخاطر الطريق ..

وإذن فالمقام للفعل الماضى الذى يؤكد أن صبرهم قيمة ثابتة .

سجية تلك فيهم

غير محدثة..

وليست فى مقام « الإنشاء والتكوين » كما يفيد التعبير « بالمضارع : يتواصون »

---

(١) سورة العصر : « ٢ » ، « ٣ » .

إنهم راغبون فى الحق .. مولعون بالثبات عليه . مهما كانت التكاليف ..
عازمون على اقتحام المستقبل بهذه الروح الموقنة. العاملة الآملة .

وبهذه الروح تستكمل الأمة عناصر قوتها :

فهى أمة موجودة فعلا .. بل تفرض نفسها على الحياة .. بكمالها ..

ثم إن هذا الوجود مستمر عبر الزمان بهذا التواصى الذى يشكل عنصر الرقابة والمتابعة ..

وبهما معا .. كانت خير أمة أخرجت للناس :

لأنها تأمر بالمعروف ..

وتنهى عن المنكر

وتؤمن بالله

عناصر وجود الأمة

واستمرارها

وقد وضحت السورة المباركة عناصر بقاء الأمة واستمرارها .. المستعصية بها على الفناء والتى تتلخص فى :

١- الإيمان.

٢- العمل الصالح.

٣- التواصى بالحق.

٤- والتواصى بالصبر.

والأمة التى تستجمع هذه الخصائص هى الأمة الرابحة .. الناجية من الخسران بهذا الزاد المبارك والذى يتمثل فى :

١- إكمال النفس بالعمل الصالح.

٢- ثم تكميل الغير بالتواصى بالحق وبالصبر.

من الأدلة على وجود الله تعالى

يقول تعالى فى سورة المؤمنون :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون.

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون.

قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون .

بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون .

عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ (١)

تمهيد :

لما أن الجذع حنينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. نزل عنه الرسول . ثم ربت عليه كأنه كائن حى .

ثم خيره بين :

أن يعود إلى الدنيا .. ليخضر ويثمر.

أو أن يدفن ليكون من أشجار الجنة ؟

فاختار « الجماد » الدار الآخرة .. إيمانا بها . وشوقا إليها .

لكن المعاندين من البشر : رفضوا البعث . وأنكروا الآخرة .. لقد باعوا آخرتهم بدنياهم .. فخسروهما جميعا..

وكان عليهم أن يبيعوا الدنيا بالآخرة .. ليربحوا الاثنين معا

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٨٤ - ٩٢.

نسبة الإنكار

وليتهم لجأوا إلى «الظن» فى رفضهم وإنكارهم .. بيد أنهم يبلغون فى الرفض درجة التشبع .. مع وفرة دواعى الإيمان .. وذلك واضح من معنى الآيات السابقة . والتى أكثروا فيها من أدوات الإنكار :

أ- .. أئذا متنا .. وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟!

ب- لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ..

جـ- إن هذا إلا أساطير الأولين .. (بأسلوب القصر).

الرد الإلهى :

ومثل هذا الصنف من المعاندين المشركين .. لايجدى معهم البرهان تصوغه أنت من عندك نظريا .. لأن الأصل أنهم رافضون لك .. ولما جئتهم به ..

لكن الرد الحاسم القاصم أن تصوغ البرهان هنا من مقدمات هم أساسا مسلمون بها .. ليكون ذلك إلزاما لهم .. من حيث إنهم يردون دعواهم .. وبأنفسهم .. ولذلك جاءت الآية الكريمة عقب ذلك الإنكار تقول لهم :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾

وكأنما تقول لهم :

أنتم مقرون بملكيته تعالى للأرض ومن فيها ..

ويلزمكم ذلك أن تسلموا بحقيقة البعث ..

لأن خالق الأرض ومالكها سبحانه قادر على إعادتكم ..

فالأرض : على سعتها .. ووفرة عجائبها .. ومن فيها

على كثرتهم وتنوعهم .. كل ذلك لله تعالى ..

وبناء على ذلك : فهو وحده المختص بالعبادة .. ومن حقه تعالى ألا يشرك به..

﴿ إن كنتم تعلمون ﴾

إن كنتم عقلاء .. تحكمون عقولكم فيما تسمعون وتشاهدون..

فلا شك أن عقولكم واصلة بكم إلى حقيقة التوحيد . ونبذ الشرك.

ولكن الحق تعالى يخبر عن جوابهم - وقبل أن يجيبوا - بما لايملكون إنكاره.

فكان دليلا من دلائل النبوة . وعلما على الرسالة .

أن يخبرهم بما وقر فى نفوسهم .

ومن شأن ذلك أن يثير فى أنفسهم جدلا .. يوقعهم فيما يشبه التمزق .. وذلك مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ أفلا تذكرون ﴾

وكأنما يفرض عليهم الموقف أن يواجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة المستقرة فى أعماقهم .. وهى كما يقول البقاعى :

(أفلا تذكرون : ذلك المركوز فى طباعكم . المقطوع به عندكم . ما غفلتم عنه: من تمام قدرته . وباهر عظمته .

فتصدقوا ما أخبر به من البعث . الذى هو دون ذلك.

وتعلموا أنه لايصلح شئ منها - وهو ملكه - أن يكون شريكا له ولا ولدا.

وتعلموا أنه لا يصح فى الحكمة أصلا أنه يترك البعث . لأن أقلكم لا يرضى بترك حساب عبيده . والعدل بينهم) أ. هـ

ونقول :

وعلى فرض أن هناك فى مخلوقاته تعالى ماهو هين .. وأهون - مع أن الكل سواء فى قدرته - فإن البعث يكون أهون .. لأنه من شئ..

بينما البدء : من لا شئ .. لقد نسيتم النشأة .. فهذيتم .. فهلا تذكرتموها ..

ليتأكد لكم : أن من قدر عليها .. قادر على إعادتكم ؟

لكن العناد يقطع السبيل على الحجة .. فلا يصل نورها إلى قلوب عليها أقفالها.

من حكمة الدعوة :

ومن حكمة الخبير بالنفوس سبحانه .. أنه لا يأخذها إلى الحق بالأدلة جملة ..

وإنما يهدهدها .. ويترفق بها ..

لقد كانت الأرض ومن فيها دليلا أظهر .. يرونه ويحسونه .. ومن ثم .. بدأ به سبحانه وتعالى استدراجا لهم..

ولما بقيت صخرة العناد كما هى .. تلاه بالدليل السماوى العلوى لأنه الأعظم فى مرأى العين .. فلعله أن يزيل الصدأ المتراكم .. وهو أسلوب فى التدرج قادر على أن يذيب الصخر.. لأن عامل الزمن مهم فى علاج المواقف ..

وذلك قوله تعالى :

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾

اعترفوا صراحة :

لمن السموات .. من ربها ؟

لمن هى ملكا .. وتدبيرا ؟

والجواب :

سيقولون لله ..

سيقولونها للمرة الثانية على التوالى ..

لكن موقفهم هو هو لم يتغير ..

ومن ثم .. اقتضى الأمر ارتفاع نبرة التهديد والوعيد ..

إنكم تقفون اليوم عرايا .. بلا دليل .. وبلا وقاية .. وأنتم تعرضون لعذاب الله تعالى .. فسارعوا إلى مغفرة من ربكم .. بوقاية أنفسكم .. قبل أن يحتويكم عذابه .. الذى إذا جاء لا يؤخر لم لا تجتنبون معصيته . ولاتتقون عقوبته . وإذا كانت هذه الأجرام العظيمة لاتستغنى عنه ساعة . فأنتم فى ضعفكم أحوج إليه. (١)

من الملك .. إلى الملكوت

وبعد هذه السياحة فى ملك الله العريض : علويه .. وسفليه .. يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقررهم بما هو أوسع منهما وأعظم .. وهو الملكوت :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير(٢) ولايجار عليه إن كنتم تعلمون﴾

اعترفوا بما أنتم مقرون به .. أظهروا الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا :

إن طلاقة قدرته تعالى حق لا مراء فيه :

يغيث من يشاء .. ولايغيث أحد منه أحدا .

(يأخذ من أراد .. وإن نصره جميع الخلائق .

ويعلى من أراد .. وإن تحاملت عليه كل المصائب.

فتبين كالشمس . أنه :

لاشريك يمانعه .

ولا ولد يصانعه . أو يضارعه ..

السيد العظيم . الذى لا أعظم منه.

الذى له الخلق والأمر . ولا معقب لحكمه .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل : الاسكافى .

(٢) يقال : أجرت فلانا على فلان : منعته منه.

الذى لايمانع ولايخالف.

وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن][1].

وإذا كان الأمر كذلك :

﴿ فأنى تسحرون ﴾؟

أيها المسحورون .. المتخبطون :

من أين تهب عليكم هذه الأوهام ؟

من أين صارت لكم هذه الادعاءات .. بعد ما أقررتم بأنه تعالى شامل العلم. تام القدرة ؟

(كيف تفعلون فعل المسحور : بما تأتون به من التخليط فى الأقوال والأفعال.. وتخدعون .. وتصرفون عن كل ما دعا إليه)

كيف تتخذون الأصنام آلهة .. كيف تخيلتم الحق باطلا ؟

إنكم مقرون بالحق - فيما بينكم - لكنكم تجحدونه عنادا ..

وإذا كنتم تسمون أنفسكم علماء .. فعلمكم لا قيمة له ..

لأن العلم الذى لايعمل بمقتضاه ساقط .. لاقيمة له . ولا جدوى منه.

الإعـــلام بالحـــق :

وإذا كان موقف المشركين يعنى : نفى البعث .. فكان لابد بعد بيان كل هذه البراهين .. من إعلان الحق .. ليتفرد بالساحة وحده بعدما أخزى الله الكافرين.

وذلك قوله تعالى :

﴿ بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾

أجل : لقد جئناهم بالحق ..

(١) البقاعى .

ولأنه « الحق » الكامل .. فقد كذبوا به ..

ذلك بأن فطرتهم المطموس عليها لاتنسجم مع هذا الحق .. ولاتملك شجاعة الاعتراف به ..

ألا وإنهم لم « يكذبوا » به فقط .. وإنما هم كذابون بالفطرة .. يردون الحق بادى الرأى دون نظر فيه .. ولا احتفاء به .. وإنما هى الفطرة الكاذبة الخاطئة .. التى لم ترشحها طبيعتها لتكون للحق عونا .

أعظم الفرى :

ولقد كان أعظم ما ادعوه كاذبين زعمهم : أن الله تعالى قد اتخذ ولدا ..

من أجل ذلك يركز السياق على فرية الفرى لتسقط .. ثم تسقط معها كل ما عداها من مزاعم :

يقول تعالى :

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾

الدليل الإلزامى :

﴿ ما اتخذ الله من ولد .. ﴾

لا من الملائكة . ولا من غيرهم .

لما قام من الأدلة على غناه . وأنه لا مجانس له .

ولما لزمهم . بإقرارهم أنه تعالى يجير ولا يجار عليه . وأن له السموات والأرض وما بينها .

ثم .. وبعد دليل الإلزام .. يلاحقهم السياق بالدليل العقلى . قطعا لأعذارهم. وأطماعهم .

﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾

وفعلوا مثلما فعلوا :

لقد تخيلوا الباطل .. حقا ..

والقبيح .. حسنا

ومن أى طريق جاءهم ذلك البهتان ؟

(أمن علمكم بأن الله مالك الأرض ومن فيها ؟

أم من علمكم بأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

أم من علمكم بأن له الملك الأغلب والعز الأغلب ..

وأنه يمنع . ولايمنع منه . ويحمى من عقابه . ولايحمى منه.

وليس فى شئ من ذلك ما يرى الفاسد صحيحا .. والمعوج قويما)(١).

الدليل العقلى :

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة .. باسطين القول بما يجلى الحق :

لو كان معه - سبحانه - إله آخر لحدث الآتى :

﴿ لذهب كل إله بما خلق ﴾.

بمعنى : التصرف فيما خلقه وحده .. ليتميز ماله .. مما لغيره.(٢)

﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾

إذا تعارضت أوامرهم .. فلم يرض أحدهم أن يضاف ما خلقه إلى غيره . ولا أن يمضى فيه أمر على غير مراده . كما هو مقتضى العادة .

فلايكون المغلوب إلها .. لما ثبت من عجزه .

---

(١) الاسكافى درة التنزيل وغرة التأويل .

(٢) راجع نظم الدرر.

ولايكون مجيرا غير مجار عليه بيده وحده ملكوت كل شئ.

ويعنى ذلك فساد الكون ..

أى أن تنازع الآلهة ومحاولة كل واحد منهم أن يستبد بأمر الكون مفض إلى فساد الكون.

لكن الكون فى حسنا جميعا : جميل .. متناسق .. متوافق .

وأنتم معترفون بذلك .. وها أنتم أولاء ترون الكون كذلك : جميلا .. متناسقا .. متوافقا ..

فيجب أن تعترفوا بالتوحيد .. لأنه من وراء هذا الجمال . وهذا التناسق.

سبحان الله عما يصفون :

ونتيجة ذلك كله : ثبوت أنه سبحانه متعال عما يقولون .

من كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى .

فهو رب السموات والأرض ومن فيهن

ورب العرش العظيم.

بيده ملكوت كل شئ.

وهو يجير ولا يجار عليه.

فهو وحده الإله الواحد الأعظم .

وليس هناك من خلقه من له صلاحية الألوهية.

ويا لخسارة الإنسان :

وبعدما وضحت دلائل التوحيد .. فلا عذر لجاحد ..

هذا الجاحد الذى نواجهه اليوم بلغة الأدباء :

(لقد أمطرت سحب الحب .. ولكن لم تصبك قطرة.

وهب عليك النسيم .. لكنك لم تستنشق عطره

وتغنى ضمير الوجود بحقيقة التوحيد .. فلم تؤوب معه !

وتجلت جواهر الحكم .. فلم تلتقط منها ..

وظهرت أمارات الهدى .. فلم تتعلق بذيل واحدة منها ..)

لقد بلغت .. اللهم فاشهد !

أمرتهموا أمرى بمنعرج اللوا

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

****

دليل الخلق

يقول الحق سبحانه فى سورة الواقعة :

﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾

ثم يقول سبحانه :

﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ﴾.

ثم يقول تعالى :

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾

ثم يقول عز وجل :

﴿ أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾

يقول المفسرون :

قوله تعالى ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ إشارة إلى دليل الخلق . الذى به يكون الابتداء .

وقوله : أفرأيتم ما تحرثون .. إشارة إلى دليل الرزق .. وبه يكون البقاء .

ثم ذكر بعد ذلك أمورا ثلاثة هى :

المأكول . والمشروب . ومابه إصلاح المأكول ..

ولقد جاءت مرتبة :

فذكر المأكول أولا . لأنه الغذاء.

ثم المشروب . لأن به الاستمراء.

ثم النار التى بها الإصلاح ..

ثم ذكر من كل نوع ماهو الأصل فيه :

فذكر من المأكول : الحب .. لأنه هو الأصل.

ومن المشروب الماء : لأنه الأصل أيضا.

ثم ذكر من المصلحات : النار .. لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها.

وفى دليل الخلق : ألزمهم سبحانه وتعالى كلمة الحق .. عن طريق التلطف بهم أولا بقوله سبحانه : نحن خلقناكم فلولا تصدقون

فهو يقول لهم : نحن خلقناكم .. وهذه حقيقة تصرخ بها كل ذرة فى كيانكم.. فلم لاتعترفون .. لم لا تصدقون بأمر ظهرت دلائله ولا مانع هناك يمنعكم من الإقرار به.. إلا أن تكونوا معا ندين .. هلموا .. فما تزال هناك فرصة للتفكير .. فى دلائل الخلق المستمرة ..

الواضحة .. والتى من شأنها أن تهديكم .. لو أردتم..

وهذا سر التعبير عن التصديق بالفعل المضارع : تصدقون ، المفيد للتجدد والاستمرار.

ويلاحظ هنا : أن قضية الحق غائبة عنهم .. ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾. وفى هذا الوجه من الصعوبة مافيه .

ومن أجل ذلك يعينهم عز وجل على التصديق بأمور :

أ- بضمير العظمة المشعر بقدرته سبحانه على الخلق.

ب- بالحرف «لولا» حضا لهم . وحثا على الاستجابة .

جـ- ثم بالفعل المضارع تصدقون . والذى يفيد أن الدلائل لم تفلت من بين أيديكم .. ولكنها تمر من أمامكم.. وما تزال منها بقية تهديكم إلى الحق.

ومن دروس الدعوة هنا :

ضرورة الصبر على المدعو .. متى كانت القضية المطروحة فى حاجة إلى عمليات عقلية قبل أن يتخذ المرء فيها قراره النهائى ..

فإن الحق تعالى - لطفا منه بالمدعو- يذكر بعد هذا التحريض :

أ- المنى .. الذى تفرد سبحانه بخلقه .

ب- ثم ذكر الموت الذى لا مرد له إذا جاء .

جـ- ثم قدرته تعالى .. على أن يذهب بهم ويأتى بقوم آخرين ..

وكل ذلك داع إلى التصديق بالخلق الأول ..

بعد إعطاء المخاطب فرصة للتأمل .. بهذه الدلائل الآخذ بعضها بحجز بعض.

فإن آمنوا .. فقد اهتدوا ..

ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه

هذا عن دليل الخلق .. وحديثنا إن شاء الله تعالى .

دليل الرزق

يقول سبحانه :

﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ﴾

يلفت الحق تعالى نظر المخاطبين إلى آية مكرورة فى حياتهم :

فهم يحرثون الأرض .. ثم يبذرون الحب .. وعندئذ تنتهى مهمتهم .. لتعمل القدرة الإلهية عملها فى إيجاد الحب فى السنابل ، ثم إنضاجه .. وإعداده ليكون طعاما..

فأنتم حينئذ حراث .. لا زراع ..

وإذا تبجح المعاندون فقالوا :

نحن نحرث .. وهو يصير بنفسه زرعا .. لا بفعلنا .. ولا بفعل غيرنا .. ولكن الحجة تقطع عليهم الطريق قائلة :

لو سلم لكم هذا القول الباطل .. فما هو قولكم فى بقائه سليما من الآفات .. فهل تدفعون أنتم عنه هذه الآفات .. أو هو بنفسه يدفعها ؟ لا أنتم .. ولا هو ..

وإنما هو فى قبضة القدرة القاهرة القادرة على جعله حطاما .. وأنتم أمامه تتعجبون .. عاجزين ..

ويلاحظ هنا ورود اللام فى آية الزرع .. دون آية الماء .. حيث قال سبحانه فى الأولى :

لو نشاء **لجعلناه** ..

وفى الثانية : لو نشاء **جعلناه** أجاجا .. بدون اللام ..

فما هو السر ؟

قال المفسرون :

إن التهديد بفقد المطعوم .. أشد من التهديد بانقطاع المشروب.

ولما كانت اللام للتأكيد .. اقتضى الأمر إثباتها فى آية الزرع ليستشعر المعاندون حجم الخسارة التى سوف تلحقهم لو استمروا فى عنادهم .. ولم يفتحوا بصائرهم على ما من شأنه أن يقودهم إلى الإيمان . وإلا كانت الخسارة فادحة.

وربما جاز لنا أن نقول :

إن القرآن يخاطب قوما معاندين جاحدين .. ماديين لا يؤمنون إلا بما يدخل تحت حواسهم ..

وقد يسلمون بتحويل الماء العذب إلى ملح أجاج .. باعتبار ذلك أمرا ميسورا..

أما أن يتحول هذا الوادى الأخضر .. إلى حطام .. فذلك مالم تسلم به النفوس العصية الأبية على الانقياد ..

ولذلك كان من المناسب إثبات اللام التى تجئ فى أوانها مؤكدة للقوم أن ما تنكرونه من تحول الزرع إلى حطام .. أمر سهل ميسور .. ثم أسقطت مع التهديد بتحول الماء .. حيث لا يستدعى الأمر ذلك . لإمكان تصوره واقعا.

وهكذا يقف حرف اللام .. ليعكس الجو النفسى بكل تعقيداته وهو حرف واحد! ربما يتجاوزه القارئ المتعجل فلا يكاد يفطن إليه ..

وبعد :

فقد كنا ونحن صغار لا نفرق بين شقيقين نظنهما مكررين .. مع ما بينهما من فارق العمر .. وهكذا النظرة المبتسرة دائما .. لا تغوص فى الأعماق .. وتفضل أن تظل على السطح راضية بالقشور ..

ولكن عظمة القرآن تتقاضانا نظرات أعمق :

ولنتعلم من الطبيعة حولنا :

فالربيع يوافينا كل عام :

بجداوله وأنهاره .. وعصافيره وأزهاره .. وأصائله وأسحاره .. وكواكبه وأقماره ..

ولكنه مع ذلك جديد .. دائما :

وهو الربيع كما كان .. لألف مرة وكأنما يوافينا لأول مرة !

وهكذا المبادئ العظيمة :

فهى على قدمها .. تظل على مر الزمان جديدة !

تقرر الحقائق .. لتثبت فى العقول ..

وتكرر القلوب من الأكدار .. لتحلق فى الآفاق العليا ..

وسبحان من هذا كلامه.

من آيات الله فى الأرض

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[(١)]

عندما انتهى الفنان من رسم لوحته .. كان بها سعيدا .. وكانت لبائع برقوق.. لكنه كان أسعد بها لما شاهد الطيور تهجم على اللوحة .. تظنها فاكهة حية!!

لأن ذلك يعنى نجاحه فى نقل صنع الله الحى .. كأنه واقع ملموس .. ولكن فرحة الفنان لم تتم .. عندما بدأ يبكى .. وتساءل الناس كيف يبكى الرجل وهذا يوم عرسه ؟

ولم تطل دهشتهم عندما علموا **سر البكاء** وهو :

أن بائع البرقوق المرقوم فى الصورة .. لم يتحرك .. ويدفع هذه العصافير .. ليؤكد للناس أن المشهد واقعى .. حى !!

وهكذا .. أخلفت الأقدار ظن الرجل .. الذى كان يطلب المستحيل ..

لكن الموقف على أى حال .. شاهد بعراقته فى عمله .. وأصالته فى فنه..

وكان عليه أن يلزم حده .. مدركا طبيعة وظيفته .. وهى :

أنه فنان .. ويعنى ذلك أنه :

يتأمل الكون من حوله .. ثم يلتقط .. وفى لحظة .. شيئا مجردا .. ثم يسجله .. يعنى يسجنه .. وللأبد فى صورة .. صامتة .. جامدة لاتتغير ..

فى الوقت الذى تظل مشاهد الكون كما خلقها الله تعالى .. حية .. متجددة .. تنبذ مشاهد البشر وراءها ظهريا .. ثم تكون نسيا منسيا ..

خذ مثلا **مملكة السمك** .. وتأمل حكمة الصنع فيها، كما ذكر ابن قيم الجوزية[(٢)]:

---

(١) الذاريات ٢٠ - ٢١.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢٧١.

(تأمل العبرة فى السمك . وكيفية خلقته :

وأنه خلق غير ذى قوائم .. لأنه لايحتاج إلى المشئ .. إذ كان مسكنه الماء.

ولم يخلق الله له رئة .. لأن منفعة الرئة التنفس .. والسمك لم يحتج إليه .. لأنه ينغمس فى الماء.

وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد .. يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبى السفينة..

وكسى جلده قشورا متداخلة (كتداخل الجوشن) ليقيه من الآفات .

وأعين بقوة الشم .. لأن بصره ضعيف . والماء يحجبه.

فصار يشم الطعام من بعد .. فيقصده.

وكما يأخذ الحيوان البرى النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به . فإن الماء للحيوان البحرى كالهواء للحيوان البرى :

فهما بحران .. أحدهما ألطف من الآخر :

بحر هواء يسبح فيه حيوان البر ..

وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر ..

فلو فارق كل من الصنفين بحره .. إلى البحر الآخر مات :

فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء .. يختنق الحيوان البحرى فى الهواء..

فسبحان من لا يحصى العادون آياته .. ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد .. بل إن علموا فيها وجها .. جهلوا منها أوجها ..

فتأمل الحكمة البالغة فى كون السمك أكثر الحيوان نسلا .

ولهذا ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة ..

وحكمة ذلك : أن يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان ..

فإن أكثرها يأكل السمك .. حتى السباع .. لأنها جاثمة على حافة الماء الصافى .. فإذا تعذر عليها صيد البر . رصدت السمك فاختطفته فلما كانت السباع تأكل السمك .. والطير تأكله .. والناس تأكله .. والسمك الكبير يأكله .. ودواب البر تأكله .. وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف .. اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة]

وما أكثر الذين يمرون على آيات الله تعالى .. ثم لا يعيرونها التفاتا ..

وما يعقلها إلا العالمون .. الموقنون .. والذين يقتحمون بالبصيرة هذه القشرة البادية .. ليقرءوا ما وراء السطور .. من الغيب المستور ..

وصدق الله العظيم :

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ ولكن :

الإنسان عدو ما يجهل :

إنه لا يراه .. ومن ثم فهو منه على حذر .. وفى ضيق .. لا يحسن أن يتعامل معه ولا أن يتكيف ..

فإذا صار فى نقطة الضوء .. رآه .. فاستراح .. وأراح ..

فإذا كان ذلك المجهول نفسك التى بين جنبيك ..

فإن حذرك .. وإن ضيقك سيكون مضاعفا من حيث كان عدوك بين جنبيك .. يناوشك من مكان قريب..

ومن ثم تحرضك الآية الكريمة على اقتحامه ..

إرادة معرفته .. فإذا عرفته .. عشت فى سلام مع نفسك .. ثم مع غيرك .. ممن يملك ذات النفس بكل مالها .. وما عليها ..

والآية الكريمة :

أ - تأنيب على التفريط فى تأملها ..

ب- تحريض على معرفتها .. بكل وسائل الإدارك

بالبصر ..

وبالعقل ..

وبالبصيرة ..

ففى الآية إيجاز واعجاز ..

وفى الحكم تكرار ..

ثم هى أمر .. موجه إلى فرد ..

أما الآية فمسئولية الجميع ..

ليبحث كل فيما يخصه .. ومن مجموع النتائج .. تظهرالنفس على حقيقتها.

أم من يجيب المضطر إذا دعاه !!

يقول الله تعالي :

﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾ (١)

تمهيد :

جاء رجل من أقصى المدينة يسعى راغبا إلى « مالك بن دينار » أن يدعو الله له .. لأنه مضطر .

وما كان جواب « ابن دينار » إلا أن قال له :

ما دمت مضطرا .. فادع الله تعالى .. فإنه مجيبك ..

لأنه سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه . ثم تلا قوله تعالى : أم من يجيب المضطر ....

ومعنى ذلك أن ابن دينار يخرج نفسه من بين العبد وربه ..

لأن هذا العبد بالاضطرار .. وإحساسه بشدة الحاجة إلى الله تعالى .. قد وضع نفسه فى مساقط رحمة الله تعالى .. وما عليه إلا أن يعرض نفسه لها .. وبلا واسطة . وإنها لنازلة عليه بركات من السماء والأرض .

وهنا سؤال يطرحه الرازى :

(فإن قيل : قد عم المضطرين بقوله .. أم من يجيب المضطر إذا دعاه .. وكم من مضطر يدعو فلا يجاب .

وجوابه :

قد بينا فى أصول الفقه : أن المفرد المعرف . لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط .

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢ .

والحكم المثبت للماهية .. يكفى فى صدقه : ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية]

ومعنى ذلك :

أن المضطر فى الآية الكريمة .. لا يراد به كل أفراد الجنس .. وإنما يراد به : معنى الاضطرار ..

فالله تعالى يكشف السوء حال الاضطرار ..

وتلك حقيقة يكفى دليلا على صدقها وقوع هذا الكشف .. ولو مرة واحدة .. والواقع شاهد بوقوعه كثيرا .

منشأ السؤال :

وقد فجر الرازى قضية يومية صارت جزءا من حياة الناس ولابد من حسم الأمر فيها .. على قدر الطاقة .

ونبدأ ذلك بسؤال :

ما هو منشأ هذا الاستفسار ابتداء ؟

ما الذى يجعل المسلم عجلا .. يقول : دعوت .. فلم يستجب لى ..

ليسد بهذا الاستعجال طريق الإجابة ؟!!

إن هذا المتعجل يتصور نعمة النفع .. ولا يدرك بنفس القوة نعمة الدفع ؟

إنه يرى أنه يمتلك ألفا .. ويريد بالدعاء أن تكون ألفين .

ويريد أن يقبل ولده فى كلية عسكرية مثلا .. تطلعا إلى غد مرموق ..

فإذا لم يتحقق أمله .. على نحو ما أراد .. مال واحتجب .. وادعى الغضب..

مع أنه فى حال غضبه هذا يتقلب فى نعم كثيرة من نعم الله تعالى ..

والتى لا تعد ولا تحصى .. وإن كان لا يحس بها .

حتى يطمئن قلب المؤمن

وحتى يطمئن قلب المؤمن نسوق إليه من الأدلة الواقعية والقرآنية ما يشفى الله تعالى به صدرو قوم مؤمنين :

١- لقد وجه الله تعالى ولدك إلى كلية لا يريدها .. ولا تريدها .. دون زميله فى نفس الحى .. والذى فاز بواحدة من كليات القمة .. فظل وجهك .. بل وجوه الأسرة كلها عابسا .

ولكن .. لله تعالى حكمة هو بالغها :

فقد علم أنك مريض .. وأن حياتك مرهونة بصدمة عصبية تخلفك جثة هامدة .. فشاءت إرادته تعالى أن يكون زميله ضمن رحلة تدريبية .. فيموت فى الجو .. فى الوقت الذى بقى فيه ولدك إلى جانبك .. فحفظ بذلك حياته .. وحياتك .. وقليل دائم خير من كثير منقطع !

٢- ثم إن فى الآية الكريمة دلائل على أن الإجابة مفروغ منها شريطة أن يجئ الدعاء بضوابطه الشرعية .. على ما يقول عمر رضى الله عنه :

إننى لا أحمل هم الإجابة .. ولكنى أحمل هم الدعاء ..

فإن صدق الدعاء .. كانت الإجابة معه .. معه لا بعده !!

والسؤال الذى يفرض نفسه هو :

قبل أن تستبطئ الإجابة .. هل تأكدت من أنك دعوت الله تعالى حقا ..

إن الآية الكريمة لا تقول : .. دعا .. وإنما «دعاه»

فهل دعوت الله تعالى حقا .. أم اعتمدت فى خيالك على غيره .. من أسباب الأرض ؟

وقبل هذا :

فإن الآية الكريمة لا تقول : إن دعاه .. ليكون الدعاء مشكوكا فيه ..

وإنما « إذا دعاه » أى : إذا تحقق الدعاء فعلا ..

فهل كان منك دعاء .. لله تعالى .. وأنت فيه مخلص له سبحانه الدعاء ؟

أم أنك سددت الطريق إلى الإجابة بمعاصيك ؟

أم لعلك دعوت بإثم أو قطيعة رحم ..

إن كنت فعلت ذلك .. فلا تلومن إلا نفسك ..

نفسك التى تطلب سلعة غالية لم تدفع ثمنها ..

أما إذا تحقق الدعاء :

فإن الإجابة واقعة لا محالة ..

ولاحظ أن الله تعالى يقدم الإجابة على الدعاء فى الآية الكريمة .. فهى كما قلنا : مفروغ منها ..

ثم إنه يصوغها بالفعل المضارع :

« يجيب »

فهو يجدد تعالى إجابة بعد إجابة .. وإن لم تكن على مزاجك الخاص .. مفصلة على قدك :

بل وإضافة إلى هذا يكشف السوء :

من فقر .. إلى غنى

ومن ذل .. إلى عز

ومن مرض .. إلى صحة

ومن ضيق .. إلى سعة

إن العيب فينا .. فى دعائنا : نعيب زماننا والعيب فينا !

وهذا ما أشار إليه ابن أدهم فى جوابه عن نفس السؤال :

لماذا ندعو فلا يستجاب لنا ؟

فكان جوابه ملخصا هو :

انفصال العلم عن العمل ..

فنحن نعلم الحقائق .. لكننا لا نعمل بها .. وإذن فقد أوتينا من قبل أنفسنا.

رأى الزمخشرى

يبين الزمخشرى أن إجابة الدعاء محققة ..

ولكننا نتعجلها على ما تهوى أنفسنا .. وننسى ما يلى :

أ - أن الدعاء المجاب مشروط بتحقيقه مصلحة .

ب- وأن المضطر يراد به :

أحيانا : كل أفراد الجنس

وأحيانا : بعض هذه الأفراد .

وفى الآية الكريمة يراد بعضه .. لا كله ..

وإذن .. فلا شبهة هنا .

ثم إن الله تعالى حين وعد بالإجابة .. لم يكن على الحال ..

وإنما على مدى عمرك المتطاول .. فما زالت الإجابة متوقعة فيما يقبل من أيامك ولياليك .[1]

الآية الكريمة :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ [2]

---

(١) لعل هذا بعض ما يشير إليه حديث دعوة المظلوم :(وعزتى وجلالى لأنصرنك **ولو بعد حين**) الذى أخرجه الترمزى برقم ٢٥٢٦ ، وابن ماجه برقم ١٥٧٢ ، والبيهقى ٣٤٥/٣ .

(٢) البقرة الآية ١٨٦ .

ومن الإشارات القرآنية هنا ما يفهم من قوله تعالى ﴿ بل إياه تدعـــون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾

والمطلق محمول على المقيد .

من إشارات أطباء النفوس

وحتى يقف المسلم بنفسه موقف المستسلم المؤمن على ما يقول ابن الجوزى [١]

تأملت حالة عجيبة وهى :

أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو .. ويبالغ . فلا يرى أثرا للإجابة .

فإذا قارب اليأس نظر حينئذ إلى قلبه :

فإن كان راضيا بالأقدار غير قنوط من فضل الله عزوجل . فالغالب :

تعجيل الإجابة حينئذ .

لأن هناك يصلح الإيمان . ويهزم الشيطان . وهناك تبين مقادير الرجال .

وقد أشير إلى هذا فى قوله تعالى :

﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ﴾ [٢]

وكذلك جرى ليعقوب عليه السلام :

فإنه لما فقد ولداً . وطال الأمر عليه . لم ييأس من الفرج . فأخذ ولده الآخر . ولم ينقطع أمله من فضل ربه فقال : ﴿عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴾ [٣]

وكذلك قال زكريا عليه السلام :

﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ مريم -٤

---

(١) صيد الخاطر ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) البقرة ٢١٤ .

(٣) يوسف ٨٣ .

****

فإياك أن تستطيل مدة الإجابة . وكن ناظرا إلى أنه المالك . وإلى أنه الحكيم فى التدبير . والعالم بالمصالح .

وأنه يريد اختبارك ليبلو أسرارك . وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك . وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك . إلى غير ذلك وإلى أنه يبتليك بالتأخير .. لتحارب وسوسة إبليس .

وكل واحدة من هذه الأشياء تقوى الظن فى فضله . وتوجب الشكر له .

إذ أهلك بالبلاء .. للالتفات إلى سؤاله . وفقر المضطر إلى اللجأ إليه .. غنى كله .

ومن مقررات شريعتنا أن الله تعالى قد يأمر جبريل ليعجل بقضاء حاجة واحدة من عبيده .. لأنه تعالى لا يريد أن يسمع صوته ..

بينما يأمره بتأخير إجابة عبد آخر حبيب إلى الله .. لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يسمع صوته !!

ابن الجوزى يحاور نفسه بصوت مسموع

وقد ذكر لنا ابن الجوزى فى موطن آخر من «صيد الخاطر» (١)

تجربة له مع نفسه التى ألزمها فى النهاية كلمة التقوى .

قال رحمه الله :

(وما يعرض للنفس من الوسواس فى تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب :

ولقد عرض لى من هذا الجنس :

فإنه نزلت بى نازلة . فدعوت وبالغت . فلم أر الإجابة .

فأخذ إبليس يجول فى حلبات كيده :

---

(١) ٦٧ وما بعدها .

فتارة يقول : الكرم واسع . والبخل مذموم . فما فائدة تأخير الجواب ؟

فقلت له :

إخسأ يالعين .. فما أحتاج إلى تقاضى .. ولا أرضاك وكيلا !

ثم عدت إلى نفسى فقلت :

إياك ومساكنة وسوسته .. فإنه لو لم يكن فى تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر فى محاربة العدو .. لكفى فى المحكمة .

قالت :

فسلنى عن تأخير الإجابة فى مثل هذه النازلة .

فقلت :

قد ثبت بالبرهان أن الله عزوجل مالك .

وللمالك التصرف بالمنع والعطاء .. فلا وجه للاعتراض عليه .

والثانى :

أنه قد ثبت حكمته بالأدلة القاطعة :

فربما رأيت الشئ مصلحة .. والحكمة لا تقتضيه .

وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذى فى الظاهر يقصد بها المصلحة .. فلعل هذا من ذاك .

الثالث :

أنه قد يكون التأخير مصلحة . والتعجيل مضرة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا يزال العبد فى خير مالم يتعجل : يقول : دعوت فلم يستجب لى) [1]

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ، ١٩٣/٣ .

والرابع :

أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك :

فربما يكون فى مأكولك شبهة . أو قلبك وقت الدعاء فى غفلة . أو تزاد عقوبتك فى منع حاجتك لذنب ما صدقت فى التوبة منه . فابحثى يا نفس عن بعض هذه الأسباب .. فلعلك توقنين بالمقصود .

والخامس :

أنه ينبغى البحث عن مقصودك بهذا المطلوب :

فربما كان فى حصوله زيادة إثم . أو تأخير عن مرتبة خير .

فكان المنع أصلح .

وقد روى عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو ..

فهتف به هاتف :

إنك إن غزوت .. أسرت .. وإن أسرت تنصرت ؟!!

والسادس :

أنه ربما كان فقد ما فقد سببا للوقوف على الباب . واللجأ ..

بينما يكون حصوله سببا للاشتغال به عن السؤال .. وهذا ظاهر :

بدليل أنه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللجأ .

فالحق عزوجل علم من الخلق اشتغالهم بالدنيا عنه .. فلذعهم

فى خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه : يستغيثون به .

فهذا من النعم فى طى البلاء .

وإنما البلاء المحض : ما يشغلك عنه .

فأما ما يقيمك بين يديه .. ففيه جمالك !

وقد حكى عن يحيى البكاء أنه رأى ربه فى المنام فقال :

يارب : كم أدعوك .. ولا تجيبنى ؟!! فقال :

يا يحيى .. إنى أحب أن أسمع صوتك

والخلاصة :

كما يقول الرازى :

(أن الداعى لابد وأن يجد من دعائه عوضا :

إما إسعافا بطلبه الذى لأجله دعا .. وذلك إذا وافق القضاء ..

فإذا لم يساعده القضاء .. فإنه يعطى سكينة نفسه .

وانشراحا فى صدره . وصبرا يسهل معه احتمال البلاء الحاضر .

وعلى كل حال .. فلا يعدم فائدة .. وهو نوع من الاستجابة .

ثم هو تعالى لم يقل :

أستجب لكم فى الحال :

فإذا استجاب له ولو فى الآخرة .. كان الوعد صدقا] [١].

فى مجال التطبيق

روى أن « عوف بن مالك الأشجعى » أسر المشركون ابنا له يسمى «سالما» فأتى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال :

أسر ابنى . وشكا إليه الفاقة فقال :

« ما أمسى عند آل محمد إلا مد .

فاتق الله واصبر . وأكثر من قول :

لا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) الرازى .

ففعل :

فبينما هو فى بيته .. إذ قرع ابنه الباب . ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو .. فاستاقها .. فنزلت هذه الآية :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (١)

قال النيسابورى :

« قد جربت الآية فى محن ومهالك . فوجدت مفرجه منفسة »

ومن أسرار القرآن ولطائفة :

أنه سبحانه حث على التقوى فى هذه السورة ثلاث مرات بقوله :

« ومن يتق الله » (٢)

وذلك على عدد الطلقات الثلاث . ووعد فى كل مرة نوعا من الجزاء :

الأول :

أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره . ويتيح له خيرا ممن طلقها .

الثانى :

اليسر فى الأمور . والموالاة فى المقاصد ما دام حيا .

الثالث :

أفضل الجزاء وهو ما يكون فى الآخرة من النعماء]

من فقه الصالحين

ولقد كانت التقوى خير معتصم للمؤمن المضطر تأسيسا على سنة الرسول :

روى أن امرأة اشتكت زوجها إلى امرأة صالحة ..

---

(١) الطلاق ، ٢و ٣ .

(٢) ومن يتق الله يجعل له مخرجا .
ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .
ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا .

فقالت لها :

اتقى الله فيه .. وإن لم يتق الله فيك .

فإن لم تفعلى أعنت الشيطان : عليه .. وعليك ..

فلم يكن إلى الإصلاح من سبيل .

ومضت أيام ..

ثم جاءت الزوجة الشاكية لتقول للمرأة الصالحة :

لقد صار أطوع إلى من بنانى ..

فقالت لها :

تلك بركة التقوى !

وكانت للتقوى هذه البركة .. لعوف بن مالك أولا ..

ثم لهذه الزوجة وأمثالها ..

لأنها تعنى الاستغناء عن كل حول وطول .. ليصير الأمر كله لله تعالى ..

فإذا تحقق معنى الرجاء .. والتضرع .. والتذلل ..

كانت الإجابة قدرا مقدوراً .

ومن معانى ذلك كله :

أن العيب فينا نحن .. وينبغى أن تبدأ الخطوة الأولى نحو الإجابة بمبادرة من الداعى نفسه ..

وصد الله العظيم :

﴿ .. قليلا ما تذكرون ﴾

إن الواقع شاهد على صدق القرآن .. لكن الذاكرة البشرية لا تعى ..

وما أكثر ما تدعى !!

إن ربك لبالمرصاد

يقول تعالى :

﴿ إن ربك لبالمرصاد فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ (١)

هكذا الإنسان إذا حرم الإيمان :

يألف النعم .. فيتعلق بها .. ولو فارقته لتألم ..

وبدل أن تكون النعمة طريقه إلى الشكر .. ثم إلى الجنة .. تصير هى نفسها طريقه إلى النار !

وليت العصيان كان مبادرة فردية يطوى الإنسان عليها كشحه . ليريح المجتمع من شره ..

ولكنه أحيانا يتحول إلى ظاهرة اجتماعية يتمثلها الطغاة من أمثال « ثمود » و« عاد » و« فرعون»

وإذا كان الداعية كالمصباح فى الصحراء : لا ينتشر ضوؤه إلا إذا تركته الرياح آمنا ..

إذا كان الأمر كذلك .. فقد يتعذر انتشار الضوء فى مرحلة من مراحل الكفاح بسبب من عناد الطغاة .. لكن العاقبة للتقوى .

وهكذا كان الإسلام .. كان ذلك المصباح :

وقد حاول المعاندون إطفاءه .. حين جعلوا الكفر مكان الشكر .

فاستحبوا العمى على الهدى ..

---

(١) سورة الفجر : ١٤ - ٢١ .

أعنى : حاولوا إطفاء المصباح .. فماذا كان موقف الداعية ؟

كما توضحه الآيات الكريمة .

موقف القرآن

بدأ السياق بتهديد المعاندين فى قوله تعالى .

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾

ويجئ هذا التهديد بعدما تقدم من الدليل التاريخى الذى يؤكد رقابته تعالى والتى لا يفلت منها أحد ..

وها هى ذى : عاد .. وثمود .. وفرعون .. آية على ذلك ..

وما تزال سنته تعالى ماضية فى أمثالهم من المكذبين :

إنه تعالى ينظر ماذا يفعل عبده :

أيشكر .. أم يكفر

يشكر فى النعمة .. أم يبطر

وفى البلاء : يصبر .. أم يتضجر ؟

(لا يفوته تعالى شئ ..

بل هو قادر . ومطلع على كل شئ اطلاع من يريد الإقامة فى مكان الرصد . وزمانه . مع غاية الحفظ والوعى . وهو قادر على ما يريد)

ولقد كان من حكمته تعالى أن يختار من التاريخ أمما كانوا أقرب إليهم زمانا.. وأشبه بقريش شأنا ..

هؤلاء الذين أترفوا بما أوتوا .. كما صنعت قريش ..

ومع ما ارتكبوه من الغرائب . وما فعلوه من العجائب . التى سولت لهم المضى فى طريق الغى .. إلا أن الله تعالى دمر عليهم .. وللكافرين اليوم أمثالها :

فنقمة الله تعالى توشك أن تحل بدارهم كإخوة لهم فى الضلال من قبل ..
(ومن خاصم فى باطل وهو يعلم أنه باطل .. ما يزال فى سخط الله حتى يدع)

عادة الله تعالى
وعادة الإنسان

بعدما استدبر المكابرون الوحى .. (صب عليهم ربك سوط عذاب)

يقول البقاعى :

(جعل عذابهم من الإغراق والرجف وغيرهما : فى قوته .. وتمكنه .. وعلوه .. وإحاطته كالمصبوب :

فى شدة ضربه .. ولصوقه بالمضروب .. وإسراعه إليه .. والتفافه به : كالسوط)

وهكذا .. لما جاءهم البأس .. فلم يتضرعوا .. كان لابد أن يتجرعوا كأس الهوان .

هذه هى عادة الخالق سبحانه .. فما هى عادة المخلوق ؟

يقول تعالى :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه .. ﴾ الآيات :

ويعنى ذلك :

أن الإنسان لم يحسن تصور القضية .. فجاء حكمه باطلا :

وكان باطلا لأنه مستمد من عين نحسة فى كيانه :

فهو كائن جبل على النسيان .. والأنس بالنفس .. وحبها ثم هو راض عنها .. بل محتقر غيرها ..

وقد أفرز ذلك كله فى كيانه قيما زائفة صارت كالمسلمات العقلية فى

حياته.. ثم أقام عليها بناء حياته :

إنه ماض على الطريق .. وعلى حل شعره .. لا يلوى على شئ .. غير مهتم برقابة من هو له بالمرصاد سبحانه .

يتعامل مع الحياة والأحياء طبق هذه الأوهام وهى :

١- يظن أن تغير الحال .. من المحال .

٢- يركز على النعم .. وينسى المنعم سبحانه .

٣- يستغرق فى الحاضر .. ولا يستشرف المستقبل .

٤- ثم الظن أنه آثر عند الله من المسلم المضيق عليه فى الرزق .

٥- وأن غناه يعنى أنه مكرم عند الله تعالى .

وهكذا الكافر :

إذا ما ابتلاه ربه .. فعامله معاملة المختبر .. فأكرمه بالجاه والمال والصحة والقوة ..

ثم رزقه نعمة الإحساس بهذه النعم .. فتذوقها وتلذذ بها .

قال مفتخرا :

أعطانى ربى ذلك .. لأنى أستحق ذلك !

وهو المعنى الذى عبر عنه صاحب الجنتين فى سورة الكهف وذلك فيما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا .

وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾[1]

---

(١) ٣٥ - ٣٦ .

باختصار:

لقد كان من دلائل غفلتهم أن ظنوا أن الامتحان .. هو نفسه نتيجة الامتحان!

﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [١] ..

إن الغنى ليس هو نتيجة الامتحان حتى تظنوا أن غناكم تكريم لكم .. ولكنه هو الامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان !

الرد الإلهى :

إن للبلاء فلسفة .. بل حكمة لا يعلمها إلا الواهب سبحانه :

فالله تعالى يعطى الصالح والطالح .

بل إنه سبحانه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب .. لكنه لا يعطى الدين إلا من يحبه .

فلا كل من أعطاه كريما عليه .. ولا كل من منعه هينا عليه ..

إنه سبحانه يعطى ابتلاء .. ويمنع ابتلاء :

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾

والمعول عليه هو : نتيجة الامتحان .

ذلك بأننا نشترك فى البلاء .. لكن النهاية ليست واحدة !

وقد يعطى تعالى استدراجا ..

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ∴ ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ومن الناس من لا يصلحه إلا الغنى .. ولو أفقره تعالى لفسد .

ومن الناس من لا يصلحه إلا الفقر .. ولو أغناه .. لفسد

---

(١) فصلت ٢٣ .

يقول المفسرون [١]

(إن الاقتار قد يؤدى إلى سعادة الدارين .

والتوسعة قد تؤدى إلى شقاوتهما .

وهكذا أكثر ما يوجد ..

ثم قال رادعا هؤلاء الغافلين :

إنى لا أكرم بتكثير الدنيا . ولا أهين بتقليلها .

لا التوسعة منحصرة فى الإكرام .. ولا التضييق منحصر فى الإهانة والصغار.

وإنما أتتهم الإهانة من حيث إنهم لا يطيعون الله .

وربما كانت بالتوسعة .. وربما كانت بالإقتار :

فربما عصى .. فوسع عليه إهانة له .. وهذا لمن يريد سبحانه به الشقاء .. فيعجل له طيباته فى الدنيا .. استدراجا .

وربما عصى .. فضيق عليه إكراما له .. لأن ذلك يكفر عنه .

وفى الصحيح فى حديث الأقرع والأبرص والأعمى فى بنى إسرائيل .. شاهد عظيم على ذلك .)

المقياس الحقيقى

وهكذا يعرض القرآن الكريم وجهة نظر الخصم بأمانة .. لكنه يرد عليها أو يردها .. ولكن بالدليل :

إن دعواهم أن الغنى تكريم لهم .. دعوى مردودة عليهم .

والأمر على خلاف ذلك ..

فهم يستهينون بأمر الله تعالى .. متجرئون على العصيان .

---

(١)البقاعى .

فيوسع علي بعض من جبل على الشقاء .. إهانة له بالاستدراج .

ويضيق على بعض من لم يجبل على ذلك .. إكراما له .. وردعا على اتباع الهوى .. وردا على الإحسان إلى الضعفاء .

من صور العصيان

ومن صور العصيان المستتبع للإهانة أنهم كما وصفهم ربهم :

﴿ لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ﴾

إنه التصور الحقيقى لهؤلاء المغرورين . والكاشف عن طبيعتهم وعن مآلهم :

إنهم ناس هذا شأنهم :

لا يهتمون إلا بأنفسهم ..

لقد فقدوا الحس الاجتماعى النظيف .. فضاع فيهم حق اليتيم وحق المسكين .. وخلت موائدهم من الأيتام .. ثم حفلت باللئام .

(لقد ظفروا بالمال سهلا مهلا .. من غير أن يعرق فيه الجبين ..

فأسرفوا فى إنفاقه وأكله واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات .. كما يفعل الوراث البطالون) (١)

وقد لا يكون الإنسان مطعما .. ولكنه لا يكتفى بذلك . فيحرض غيره على البخل إمعانا فى تدمير الضعاف المساكين ..

إنه مجتمع الأنانية :

فمن افتقر فيه .. فإنه يعيش وحده :

يتهمه كل من كان يأتمنه .

---

(١) الزمخشرى .

وساء فيه ظن من كان يحسن به الظن ..

ثم إن حسناته تضاف لحساب غيره ..

ومن كان له من الناس .. صار عليه !!

وهكذا يكون الحال كلما تحكم الهوى .. فى كل عصر ومصر :

تضيع كرامة الإنسان ..

ثم تتضارب الأحكام : والواقع شاهد بذلك :

لقد اهتمت الدعاية الأجنبية بحصان السباق « أركل» عندما أصيب فى قدمه.. واصفة له بأنه ثروة لا تعوض ..

لكن الإنسان .. يموت فى البوسنة .. ولا يجد من يسمى عليه إذا وقع .. ولا من يودعه حين يموت !

وهكذا تضطرب المقاييس :

فعندما ينتزع الراعى عنزة من الذئب .. فإن الشاة تعتبره بطلا .. بينما يعتبره الذئب دكتاتورا ..

وهكذا تتضارب الأحكام .. إذا تحكم الهوى !!

من أدب القرآن

ولاحظ من أدب الآية الكريمة أنها تقول فى حال تضييق الرزق :

﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ ولا تقول « أهانه» :

١- تعليما للأدب مع الله تعالى .

٢- ثم تقديرا لأكثر الفقراء حتى لا يجرح شعورهم .

٣- وإثبات أن تقدير الرزق ليس بالضرورى أن يكون إهانة للإنسان !

مقياس المؤمن :

ولقد كان المؤمن سعيدا بقدر ربه وحكمه فيه :

إن أصابته سراء .. شكر .. فكان خيرا له .

وإن أصابته ضراء .. صبر .. فكان خيرا له .

وليس ذلك إلا للمؤمن ..

وبينما يسئ المنافق .. ثم يضحك .. ويقلع النبات .. ثم يرجو الحصاد ..

بينما المنافق كذلك .. فإن للمسلم مع قدر الله تعالى شأنا آخر :

إنه يحسن .. ثم يبكى

ويزرع .. ويخشى الفساد .

والأصل فى ذلك قوله تعالى :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون .

والذين يؤمنون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ [(١)] .

إنهم خائفون .. حذرون .. ولو لم يفعلوا خطيئة ..

بل إنهم مشفقون .. والإشفاق يتضمن الخشية .. مع زيادة فى الرقة والضعف..

وأين منهم أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟!

---

(١) المؤمنون : ٥٧ - ٦١ .

الزاد الباقى

يقول عز وجل :

﴿ ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ... الآية (١)

يخاطب الله تعالى بالآية الكريمة قوما أحياء : يملكون من القوت والطاقة مابه تستمر الحياة .

لكنه سبحانه وتعالى يهيب بهم أن يستجيبوا لما يحييهم .. فلابد إذن أن الآية الكريمة تعنى شيئا وراء هذه الحياة .. وهو القيم التى تعدنا لما بعد هذه الحياة.. وهو الدار الآخرة .. والتى وصفها ربنا تعالى فقال :

﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (٢) .

هذه القيم التى يكون بها الانتصار:

ففى مستهل الدعوة .. وفى السورة الثانية فى ترتيب النزول سورة « ن » قال له ربه تعالى :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون ﴾

أى أن القوة المادية المدلة بنفسها .. تواجه بمنظومة الأخلاق النبوية والتى بها سيحقق الانتصار وإذن .. فالدنيا .. دار ممر .. لادار مقر .. أما المقر فهناك .. حيث نعيش حياتنا الحقيقية .. وهذا بعض مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ (٣)

فالآية الكريمة تبين إلى أى حد يكون ندم الكافر يوم القيامة .. لأنه لم يقدم فى دنياه شيئا يلاقيه فى حياته .. أى فى حياته الآخرة ..

---

(١) الأنفال « ٢٤ » .

(٢) العنكبوت « ٦٤ » .

(٣) الفجر « ٢٤ » .

****

وقد كانت لهذا الكافر فى دنياه : الخيل المسومة والأنعام والحرث ..

ولكنه عاش مع النعمة ولها .. ولم يذكر المنعم سبحانه .. بعثه الله تعالى مفلسا معترفا بأن الحياة حقا .. هى الدار الآخرة التى يندم اليوم أن لم يدخر لها شيئا .

والآية الكريمة تحمى المؤمنين من هذا المصير الرهيب .. كاشفة لهم عن الزاد الباقى .. وأن مايملكون ومايدخرون لدنياهم .. مما يحتسبونه ضروريا .. لايساوى شيئا إزاء ماينتظرهم هناك من نعيم مقيم .

الزاد الباقى :

والمؤمن مدعو إلى تحصيل الزاد الواصل به إلى دار هى الحيوان .

وهذا الزاد هو : مجموعة القيم التى بها يكون الإنسان إنسانا .. والحياة حياة :

ومنها : قيمة الحرية .

ولانعنى بالحرية مفهومها السياسى .. على أهميته .. ولكننا نريد بها : التحرر من ربقة النفس والهوى والشيطان .. والدنيا .. حتى يكون هوى المسلم تبعا لما جاء به الرسول ﷺ من التكاليف . بمعنى أن المسلم :

إذا تردد العقل بين حق وباطل .. كانت دعوته هى دعوة الحق .. وإن تردد الطبع بين رذيلة وفضيلة .. كانت دعوته هى الفضيلة .. وإذا تردد المرء بين لذة وواجب .. كانت دعوته هى الواجب .. وهو يعترف أنها دعوة إلى أصعب الطريقين .. وأشق الأمرين ولكنه يؤثرها راضيا مضحيا .

وبينما غيره يجلس خلف المكتب الوسيم يخط بالقلم .. فإن المؤمن يعبر عن مبادئه .. بالألم .. بقطرة دم .. تترعرع بها شجرة الحرية .

ألا ماأرخص المداد .. وماأعظم الاستشهاد

ومعنى الاستشهاد :

إيثـار الحق .. على نوازع النفس . فى الغنى .. لابطر .. وفى الفـقـر .. لاضجر.

وإنما هو الإحساس المتنامى بالواجب .. الذى قد يكلف المؤمن حياته .. لكنه يبذلها محتسبا .

وفى مواجهة الأحداث : فإن الحيلة عنده هى : ترك الحيلة .

فـالجوارح تعـمل .. والقلب فى الصـدر مـوصـول بملك الملوك سـبحـانه .. ولاتعنيه النتيجة بقدر مايعنيه رضاؤه تعالى .

ومن ثم ينطلق فى حياته جسوراً .. وهو أسرع الناس وصولا إلى غايته .. بعدما حطم القيود المانعة .. وبعد ما أغلق المنافذ التى تهب منها الشرور وهى : الشهوة . والرغبة . والغضب .

التدريب على تسلق الجبال :

ولأن الرسول ﷺ كان يحضهم على أن يطلبوا من الجنة الفردوس الأعلى .. فقد كان لابد من منهج يعينهم على الصعود :

وقد تم ذلك عبر أمرين :

أولا : كـان ﷺ هو الأسوة الحسنة وكان آله وعماله كذلك ، كان فى العبادة على أوفى معانيها وكان من الزهد فى الدنيا والاستعلاء على فتنتها فى الذروة.. فقد رفض أن يكون ملكا .. واختـار أن يكون نبيا رسولا .. بكل ماتحمله الرسالة من تضحيات وعلى ماتوفره له الدنيا من مغريات .

وثانيا : كان ﷺ يدربهم على التضحية فى أعلى مستوياتها .. حتى إذا واجهوا الحوادث كانوا لها إيثارا للواجب على هوى النفس .

وفى السيرة وبين أحداث التاريخ مايؤكد ذلك :

ولقد كان خال رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص تعبيراً عن هذا التحرر من إسار الهوى .. وذلك حين مرضت عينه . فقيل له :

أنت مستجاب الدعوة .. فلم لاتدعو الله تعالى لتصح عينك ؟ فقال :

أختار ماقضاه الله تعالى لى .. لاماترضاه نفسى !

ولم يكن سعد وحده على الطريق .. وإنما كان عثمان - وهو زوج بنت رسول الله - كان على مستواه إيثارا للرسول على هوى نفسه .

فقد أرسله ﷺ عام الحديبية سفيرا له إلى قريش .

ولما اكتحلت عيناه بالكعبة .. تفجر فى قلبه نهر من الأشواق .. حاول أن يجرفه ليطوف بها .. ولكنه مع شوقه العارم .. لم يفعل .. لماذا ؟

حتى لايفعل شيئا يسبق به الرسول ﷺ .

ومن طريف مايروى هنا :

أن الصحابة كانوا يغبطون عثمان رضى الله عنه .

ولايغبطونه أن عين وزيراً وسفيراً .. وإنما لأنه سيسعد دونهم برؤية الكعبة والطواف بها .

وكان ﷺ ينوه بالتزام عثمان وكبحه جماح هواه ويقول للصحابة :

لن يفعلها - يعنى لن يطوف - ولو مكث كذا وكذا !!

فتأمل إلى أى حد كانت صرامة الالتزام فلا تثريب على سعد رضى الله عنه لو أنه دعا أن يعود الله تعالى إليه بعينه .. التى يرصدها ساهرة حارسة فى سبيل الله .

ولكن القلب معلق بما يرضى الله تعالى .. لايبغى عنه حولا .. حتى ولو كان المشتهى هو عودة العين الباصرة !

ولقد كان عثمان رضى الله عنه على ذات الطريق : فلو أنه كان فى المدينة ثم منع من السفر إلى مكة لكان من الممكن أن يصبر .

لكنه فى البيت الحرام فعلا .. مغموس فى نور البيت .. والكعبة ملء عينيه.. والأشواق عارمة تقض مضجعه .. لكنه يؤثر أن يكون هواه مع الرسول ﷺ حين يكف نفسه .. فلايستجيب لهواها .. حتى لايستأثر دون رسول الله ﷺ بشئ يريده . بل قد تكون التضحية بالنفس أملا وعملا .

وهذا هو على رضى الله عنه يضحى بحياته التى يضعها فى مرمى نيران العدو ، ثم هى ليست حياة شيخ زهد فى حياته . وإنما حياة شاب له مستقبل وله آمال .

إننا واجدون أنفسنا أمام قيمة الصبر فى أسمى معانيها .. وكما قيل :

الصبر صفة والاستعانة به اتصاف .

الصبر خلق .. والاتصاف به تخلق .

فإذا لم يكن الاتصاف بالصفة .. فلا معنى للصفة .

وإذا لم يكن التخلق .. فلاخلق .

فالصبر من حيث هو : جميل .. وصفة محمودة .

ولكن : ينقصنا التجمل به .. والتخلق عليه .

وعندما كلف الرسول ﷺ عمر رضى الله عنه أن يعطى ابن سعنة اليهودى حقه .. أمره أن يزيده عشرين صاعا نظير ماروعه عمر لما أغلظ القول للرسول .

واختار ﷺ « عمر » بالذات .. لأنه هو الذى تميز غيظا من إساءة ابن سعنة للرسول .

ثم هو عمر صاحب الشخصية الآمرة التى لم تكن تصبر على الضيم .. وكان غضبها لله شديدا .

ولقد نجح فى الامتحان الصعب .. حيث وضعه ﷺ فى موقف لايحسد عليه.

تدريبا لطاقته ألا تنفلت .. ولتظل أبدا محكومة بمصلحة الدعوة .. ولاتنحرف مع هوى النفس الجامح .

وعلى مستوى القواد العسكريين .. كان الالتزام بأدب الإسلام فوق نوازع النفس فهذا **خالد بن الوليد** رضى الله عنه :

لقد عزله عمر رضى الله عنه وهو فى أوج عظمته .

وابتلع خالد شحنة الغيظ ، ثم أعلن استسلامه لقرار الفاروق قائلا :

(والله لو ولى عمر على امرأة لسمعت وأطعت)

وهكذا تكون الحرية .. حرية التحرر من هوى النفس ليكون الأمر كله لله.

وكذلك كان **زيد بن حارثة** رضى الله عنه :

لقد طلق زينب رضى الله عنها .. على مضض .. وبينما كان قلبه يشتعل غيظا .. إذا بالأمر يصدر إليه من الرسول ﷺ أن يخطبها له .. هو بالذات !

إن زوجة الأمس .. يراد لها اليوم أن تكون لغيره .. وهو الذى يمهد لذلك تمهيدا .. ولابأس .. ولاغضاضة مادام الزوج هو رسول الله ﷺ .. إيثارا للحق على الهوى .

ولعلنا ندرك كيف تختلط المشاعر أحيانا ثم تتداخل حدودها فلا تدرى هل حركتنا لله تعالى .. أم للنفس .

وقد تنطلق على غير هدى .

لكن المؤمن نوره بين يديه .. فهو يفرق بين مزاجه .. ومزاج الحق .. مهما دق الأمر .. وعز التمييز .

فهذا صحابى جليل يجرى وراء مشرك ليقتله .. ولقد كان المشرك ذكيا لئيما .

فقد التفت إلى الصحابى .. وكانت منه حركة محرجة .

وماكان من الصحابى .. إلا أن ألقى سلاحه .. وصرف النظر عن قتل هذا المارق .. فلما سئل فى ذلك قال :

كنت أريد قتله أولاً .. لله تعالى ، أما الآن فلو قتلته .. لكان ذلك لهوى نفس .

وإذن .. فهو فى حل من قتلى .. فلا أريد أن أتصرف تحت ضغط من نفسى!

تأمل هذا .. ثم تذكر ذلك العبد الذى قال له سيده :

أعد الطعام .. ثم أغلق الباب

فقال له عبده :

بل أغلق الباب .. ثم أعد الطعام .

ولقد أعجب السيد البخيل بهذا الجواب الذى هدهد فى كيانه غريزة الشح.. ولم يتمالك نفسه حين قال له :

اذهب .. فأنت حر !!

إن هذا سيد بمقياس المجتمع ..

لكنه عبد .. بمقياس الأخلاق .. فهو لم يعتقه إيمانا بالحرية .. ولاإذعانا لأوامر الشرع .. ولكن لأنه أرضى غروره .

وأين هذا المالك من **عبد الله بن عباس** والذى قال لعبده يوما :

إن جلبت لى ضيفا .. فأنت حر !!

إن الأعمال .. قد تكون ضخمة فخمة .. لكنها بميزان الإسلام لاتساوى

فتيلا وأن قيمة العمل مردودة إلى مصدره .

الأصل القرآني :

والأصل القرآنى .. في هذه الآيات الكريمة . التى ترسخ فى القلوب معنى إيثار الحق .. على الخلق .. من مثل قوله تعالى :

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ﴾ .

فالمؤمن يؤتى المال .. والحال أنه راغب فيه متمكن حبه من قلبه (على حبه)

ثم هو يتخطى العقبة الثانية .. حين لايعطيه غنيا يمكن أن يعوضه عنه غدا.. ولكنه يعطى من لايرد إليه جميلا .

المسكين واليتيم والأسير

وإذا حاول أحد أن ينوه بهذا العطاء .

فإن المؤمن يرفض هذا الإعلام معلنا أنه لايطعم لغرض .. وإنما هو إكرام عباد الله بمال الله .

فكل أمانيه أن يرضى به الله تعالى .. أما شكر الشاكرين .. فلايلقى له بالا .

﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾

وقد بقى التحرر من هوى النفس خلقا أصيلا صار سمة من سمات الصفوة من أمتنا :

أحب عمر بن عب العزيز جارية لزوجته .. فلما طلب منها أن تهبها له .. اعتذرت الزوجة ، ولكنه لما ولى الخلافة .. وهبتها له . وجاءته الجارية متزينة .

---

(١) الإنسان «٨ - ٩» .

وفى هذه اللحظة الحرجة .. يدوس على كل مشاعره فيقول لها :

لمن كانت .. وممن أخذت ؟

فلما تبين له أنها أخذت غصبا .. تجاهل كل مشاعره والجارية ملك يديه .. وقرر ردها إلى أهلها .

وجاءه أهلها يهرعون إليه .. فقال :

لاحاجة لى بها .

فقالوا له : اشتريها !

فقال : لست إذن ممن ينهى نفسه عن الهوى

فلما قالت له الجارية : وأين حبك لى .

قال لها : على حاله .. بل قد ازداد

وذلك مربط الفرس:

لقد ضحى بشهوته .. وهى مشتعلة فى أعماقه .. وذلك هو الانتصار الحقيقى .. والحرية كما ينبغى أن تكون.

لقد كانت أمنيته فى صباه .. أن يتزوج فاطمة .. فتزوجها .

ثم اشتاق إلى الولاية .. ثم إلى الخلافة فنالها .

أما اليوم .. فلم يبق إلا الجنة التى يسعى لها اليوم سعيها ارتفاعا بتقواه.. على أنقاض هواه .

﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ (١)

---

(١) النازعات «٣٧-٤١» .

ونقول لأمتنا اليوم :

إن أهل الهوى يستمسكون بدنياهم المؤثرة .. بل ويضحون في سبيلها .. فكيف يكون موقف أهل الحق ؟

إن الشاعر الماجن يباهي بأنه لن يخون عهد عشيقته :

لالا أبوح بحب بثنة إنها   أخذت علي مواثقا وعهودا

وعاشق آخر يحذف كل سنوات عمره .. ولايبقى منه إلا ساعة واحدة تصبح هي العمر كله .

حين ينفرد بها .. فيختزل عمره كله ليكون هذه اللحظات .

وقد يتحمل المحب فوق مايحمل البشر .. في سبيل لحظة عابثة ماجنة .

فإذا لم يكن أهل الحق أعظم تضحية .. فلا جرم أن يخسروا قضيتهم تلك التي لم يدفعوا ثمنها ! وهذا واحدا من روادهم يؤذن فيهم .. بإيثار الأبقى

الجوع يطرد بالرغيف اليابس   .·.   فعلام تكثر حسرتي ووساوسي.

والمرأة عند حسن الظن بها .

ونختار « بريرة » رضي الله عنها مثلا :

فقد تصدق عليها بلحم . ووضع على النار في البرمة ، فدخل النبي ﷺ وطلب الغداء .

فقدموا له خبزا وخلا فقال : خبز وخل وأنا أرى البرمة على النار ؟!

فقالوا : إنه لايصلح لك ، لأنه لحم تصدق به على « بريرة » وأنت لاتأكل الصدقة .

فقال ﷺ :

قربوا لي منه . فإنه عليها صدقة . ولنا منها هدية .

لقد كانت بريرة واحدة من أهل هذا البيت الذى كان حريصا على كل مايهوى الرسول ﷺ .

ومن حرصه هذا أن يرد عنه كل مالاينسجم مع جلال النبوة .

ولقد كان لبريرة موقف آخر أكد ولاءها للرسول ﷺ. وكيف كان هواها تبعا لما جاء به :

روى ابن عباس رضى الله عنهما :

(أن زوج بريرة . كان عبدا يقال له « مغيث »

كأنى انظر إليه يطوف خلفها يبكى . ودموعه تسيل على لحيته .

فقال النبى ﷺ لعباس : ياعباس

ألا تعجب من حب مغيث بريرة ؟

ومن بغض بريرة مغيثا ؟

فقال النبى ﷺ : لوراجعتيه قالت :

يارسول الله : أتأمرنى ؟

قال: إنما أنا أشفع .

قالت : لاحاجة لى فيه .

وفي رواية : فإنه أبو ولدك .

وفى رواية : لو أعطانى كذا . وكذا ماكنت عنده .[١]

والشاهد هنا : أنها مع شدة بغضها له . إلا أنها مستعدة أن تعود إليه لو كان ذلك من الرسول أمرا .

أما إذا كان شفاعة .. فقد بقى قرار العودة فى يدها.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، ينظر : فتح البارى ج ٤٠٨/٩ .

قيمة الحياء:

قال ذو النون :

الحياء : وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ماسبق منك إلى ربك .

والحب ينطق . والحياء يسكت . والخوف يقلق .

وقد كان للحيى جزاؤه الأوفى عند ربه . وينسى الله تعالى الناس عيوبه وينسى بقاع الأرض ذنوبه .

ويمحو من أم الكتاب زلاته . ثم لايناقشه الحساب يوم القيامة .

ومن هؤلاء : أبو هريرة رضى الله عنه .

فقد روى عن نفسه فى الحديث المتفق عليه :

أنه لقى النبى ﷺ فى طريق من طرق المدينة - وهو جنب - فانسل . فذهب. فاغتسل .

فتفقده النبى ﷺ . فلما جاءه قال :

أين كنت ياأبا هريرة ؟ قال :

يارسول الله : لقيتنى وأنا جنب . فكرهت أن أجالسك حتى أغتسل .

فقال رسول الله ﷺ :

سبحان الله !! إن المؤمن لاينجس (١)

لقد كانت لأبى هريرة مندوحة لو أنه جالس الرسول ﷺ .. من حيث كان مضطرا إلى ذلك .

ولكنه الحياء المانع .. حتى من مثل الذرة .. حبا للرسول .. وإعظاما له .

لقد رباهم الرسول ﷺ علي خلق الحياء الذى كان فطرة لم يتكلفوها .

---

(١) مسلم : كتاب الحيض والبخارى كتاب الغسل .

وعلى هذا الأساس مضى الفكر الإسلامى يمكن لخلق الحياء فى النفوس حتى قال الفقهاء :

لابد فى مخاطبة المرأة للرجل أن تلجأ إلى « الكتابة » دون التصريح .. حتى لايظن بها الظنون .

ولابد وهو يكلمها من الكناية أيضا .. حتى لاتتجرأ عليه .

واليوم .. تفتح عينيك على صفحات الصحف لترى .

ترى غريزة الجنس تستيقظ .. فتجرم .. ثم تفسح الطريق لغريزة الوحش فى النفوس .. لتقتل الضحية !

وإذا لم تستح فافعل ماشئت .. وقل أيضا ماشئت !

وهو الأمر الذى يفرض على الدعاة أن يوصلوا القول تنويها بخلق الحياء .. لعل أمتنا أن تفيق من غفلتها .

وفى خيالنا .. **ثابت بن قيس** رضى الله عنه . لقد حكم على نفسه بالسجن فى بيته لايبرحه . ودموعه الغزار تبلل ثيابه .

إنه لم يرتكب إثما .

كل ماهنالك : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى .. ﴾ (١)

لما نزلت هذه الآية الكريمة .. اختفى .. فلما استدعى للقاء النبى ﷺ قال : إنى امرؤ جهير الصوت . وقد كنت أرفع صوتى فوق صوتك يارسول الله . وإذن .. فقد حبط عملى . وأنا من أهل النار وهكذا يفعل الحياء بأهله . ولكنه ﷺ يطمئنه برحمة الله تعالى . والذى لن يضيع إيمانه فيقول له : إنك لست منهم ، بل تعيش حميدا . وتقتل شهيدا . ويدخلك الله الجنة

(١) الحجرات : « ٢ » .

وإذن .. فليست قصارى وظيفة المؤمن أن يطيع الرسول .. وإنما تتم طاعته بالكف عن كل مايسوء مشاعره .

وقد كان للمؤمن من الحياء .. ماأتم به نعمة الله عليه فكان مطيعا .. فى الشعائر .. محافظا على المشاعر !!

أما بعد :

فهذا هو رسول الله ﷺ .. الإنسان الذى ولدنا بمولده .. ومازال يسعدنا بالإسلام .

ومن ثم .. لايكفى أن نحتفل بميلاده يوما .. أو شهراً أو سنة .. بل نحتفل به فى كل لحظة نسعد فيها بالإسلام .

بل إنه ﷺ أسعد الإنسانية كلها :

﴿ وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [(١)]

ومن ثم .. لايكفى أن نحتفل به نحن المسلمين . وإنما لتحتفل معنا بميلاده . الأسرة الإنسانية كلها .. والتى تنعم بخيراته .. ورحماته .

---

(١) الأنبياء : « ١٠٧ » .

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم !!

يقول تعالى :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ (١)

تمهيد :

ليس هناك أحد فى الدنيا لايجد من هو أفضل منه فى شئ ما .. ومن هو أقل منه فى أشياء .

إن كنت فقيرا .. فهناك من هو أفقر منك .. وإن كنت مريضا .. فهناك من هو أشد منك مرضا .. وإذن .. فبدل أن ترفع رأسك لترى من هو أغنى منك .. وأصح منك .. بدل هذا .. اخفضها لترى من هو أقل منك مالا .. وأشد مرضا .

وإذا لم يكن ماتريد .. فلماذا لاتريد ماحدث بالفعل ؟!

وهكذا علمنا الإمام الشافعى الذى قال :

قدر الله واقع .. حيث يقضى وروده

قد مضى فيك حكمه .. وانقضى مايريده

وأخو الحرص .. حرصه ليس ممايزيده

فأرد مايكون .. إذ لم يكن ماتريده

إنه - بلغة العصر - حسن التكيف مع الظروف .. ويكفى أنك بذلت ماهو داخل فى استطاعتك .. وعلى حد قول علمائنا :

الخير أردت .. ولايعلم الغيب إلا الله

أساس الداء :

إن علة القلق من قضاء الله تعالى لدى الإنسان أن الإنسان ضيق النظرة

---

(١) البقرة آية « ٢١٦ » .

التى تحصره فى اللحظة الحاضرة دون استشراف إلى المستقبل أرأيت إلى هذا النهر الجارى .. والذى يمضي .. بمافيه من زبد ؟

هكذا يمضى نهر الزمن .. ولايتوقف .. مهما كان فيه من هموم .. وإذن .. فلاتكن أسيرا للحظة الحاضرة العابرة .

تجاوزها .. فالزمن لن ينتظرك .. ولن يمسك لك أحد قرص الشمس .. ولكن ناسا يحصرون أبصارهم فى اللحظة الحاضرة . أى : فى الواقع الماثل .. وكلما يمتد منهم البصر إلى المستقبل .. ليدركوا كل زوايا الصورة .. حتى يجئ حكمهم صادقا .

والآية الكريمة كما رأى علماؤنا :

تربى النفوس بمناقشتها فى أوهامها .. وردها إلى احتمالات المستقبل .

إن أذكى الأذكياء عاجز عن إدراك ضمير المستقبل .. والأمر فيه لله وحده .

ومادام الأمر كذلك :

فعلى العبد استفراغ الجهد . والأخذ بالأسباب . ثم الرضا بما يقع من قضاء الله .. بلا غضب أو سخط . لأن هذا الذى وقع .

ربما كان خيراً لك من الصورة التى تمنيتها لنفسك .. والتى ربما كانت شراً لك .. من حيث لاتدرى .

لأن الله تعالى يعلم .. وأنت لاتعلم .

يقول الرازى :

أما قوله تعالى ﴿ والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ فالمقصود منه الترغيب العظيم فى الجهاد :

وذلك أن الإنسان إذا اعتقد قصور علم النفس . وكمال علم الله تعالى . ثم

علم أنه سبحانه لايأمر العبد إلا بما فيه خيره ومصلحته .. علم قطعا أن الذى أمره الله تعالى به . وجب عليه امتثاله .

سواء كان مكروها للطبع .. أو لم يكن .

فكأنه تعالى قال :

ياأيها العبد :

اعلم أن علمى أكمل من علمك .. فكن مشتغلا بطاعتى ولاتلتفت إلى مقتضى طبعك .. فهذه الآية فى هذا المقام تجرى مجرى قوله تعالى فى جواب الملائكة ﴿ إنى أعلم مالا تعلمون ﴾

وإذن .. فليس الخير فيما تحب أو تكره ..

وإنما هو فيما شرع الله تعالى .. فيجب عليك ترويض النفس ليكون هواها تبعا لما أمرك به ونهاك عنه .

واقعية الإسلام :

لاينكر الإسلام حرص الإنسان على حياته .. ثم الحفاظ عليها أن تهلك وتردى .

وإذ يقول سبحانه :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾

لاينعى على العباد أن كرهوا القتال طبعا .. فذلك فطرتهم .. فالذى يقام عليه الحد مثلا .. يتألم حين يضرب .

ولكنه فى أعماقه راض بقضاء الله تعالى وقدره .. مستسلم لحكمه سبحانه.

ولكن الإسلام الذى لايصطدم بالفطرة يأخذ بيدها إلى تجاوز هذه الكراهية

****

.. استشرافا للمستقبل الذى سوف يسفر فى النهاية عن حقيقة أن الخير فيما اختاره الله تعالى :

يقول الرازى : معنى الآية أنه : ربما كان الشئ شاقا عليكم فى الحال . وهو سبب للمنافع الجليلة فى المستقبل .. وبالضد .

ولأجله حسن شرب الدواء المر فى الحال .. لما يتوقع من حصول الصحة فى المستقبل .

وحسن تحمل الأخطار فى الأسفار . لتوقع حصول الربح فى المستقبل .

وحسن تحمل المشاق فى طلب العلم .. للفوز بالسعادة العظيمة فى الدنيا . وفى العقبى .

وهاهنا كذلك : لأن ترك الجهاد . وإن كان يفيد فى الحال صون النفس عن خطر القتل .. وصون المال عن الإنفاق . ولكن فيه أنواع من المضار . منها :

أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون . قصد بلادكم وحاول قتلكم .

فإما أن يأخذكم ويستبيح دماءكم وأموالكم .. وإما أن تحتاجوا إلى قتالهم من غير إعداد آلة وسلاح .

وهذا يكون كتركك مداواة المرض فى أول ظهوره . بسبب نفرة النفس عن تحمل مرارته .

ثم فى آخر الأمر يصير المرء مضطرا إلى تحمل أضعاف تلك النفرة والمشقة .

والحاصل أن القتال سبب لحصول الأمن .. وذلك خير من الانتفاع بسلامة الوقت .

فثبت بما ذكرنا - والكلام للرازى - أن الطبع ولو كان يكره القتال من أعداء الله .. فهو خير كثير .

ومعلوم أن الأمرين : متى تعارضا فالأكثر منفعة هو الراجح أ.هـ .

وهكذا فى كل أوضاع الحياة التى يواجه بها المسلم .. ولقد كانت النظرة السطحية .. العجلى سببا في التبرم بقضاء الله تعالى .

ومن ثم كان علاج علمائنا لهذه الظاهرة كاشفا عن هذه العلة .. راجعا بالأمر كله إلى العليم الخبير سبحانه وتعالى :

مر **ابراهيم ابن أدهم** على رجل وجهه ينطق بالهم والحزن فقال له :

إنى سائلك عن ثلاثة فأجبنى :

فقال الرجل : نعم

فقال إبراهيم : أيجرى فى هذا الكون شئ لايريده الله ؟

قال : لا

فقال إبراهيم : أفينقص من رزقك شئ قدره الله ؟

قال : لا

قال إبراهيم : أفينقص من أجلك لحظة كتبها الله

قال الرجل : لا

فقال إبراهيم : فعلام الهم إذن ؟!!

إن هذا الرجل المهموم .. مؤمن بالله تعالى .. ومن ثمرات هذا الإيمان .. يقينه بأن الله تعالى هو الفعال لما يريد .. القابض الباسط .. وأنفسنا بين يديه .

لكن هذه الحقائق كانت راكدة .. أو راقدة فى أعماق .. ولم تكن فى بؤرة الشعور .

فلما حركتها اليد الصناع .. يد الداعية البصير : ابن أدهم طفت على السطح .. فخرج بالرجل من لحظته الحاضرة ليرى الحق حقا .. فكان أن انحسر

همه.. وزايلته همومه .

إننا كما قيل :

نعيب زماننا والعيب فينا ومالزماننا عيب سوانا

واقعية الإنسان :

إذا كان الإسلام واقعيا فى نظرته إلى الإنسان .. فيقدر ضعفه .. ثم يعينه على الوصول إلى هدفه المأمول .. إذا كان الإسلام كذلك .. فقد وجب على الإنسان نفسه أن يكون واقعيا .

ولن يكون كذلك حتى تصح نظراته إلى ماحوله . ومن حوله .. ليصل فى النهاية إلى الإحساس بالسعادة والرضا .

يقول أحد الباحثين :

(هذا إنسان يقول عن نفسه إنه سعيد .. لأنه يؤمن بأنه لايستطيع أن يحقق السعادة لنفسه . إلا إذا استطاع أن يعترف بما فى هذا العالم من وجوه النقص الكامنة فيه وأن يتقبل هذه الحقيقة . رغم أنها شديدة المرارة)

فعلى الإنسان أن يعرف .. ثم يعترف بأنه - كبشر - غير قادر على الوصول إلى الكمال . وكل البشر كذلك .

ومن سذاجة الطفولة أن نجعل وجوه النقص فى الحياة سببا فى تعويض أسباب سعادتنا .. والقضاء على رغبتنا فى أن نواصل رحلتنا فى هذه الدنيا .

إن الطبيعة أقدم من الإنسان عمرا .. ومع ذلك فهى مازالت بعيدة عن الكمال :

فنحن نواجه حر الصيف .. وزمهرير الشتاء .. وجفاف الخريف .. وقد تسقط الأوراق الجافة .

لكن .. مع هذا .. فالطبيعة بأمر ربها ماضية فى سبيلها .. ومازالت معجزة الحياة مستمرة .

وإذن .. فيجب علي المسلم بحكم إيمانه وامتحانه فى هذه الدنيا يجب عليه أن يتعلم من هذا الواقع الصارم .. بدل أن يغيب فى سكرة المثال الحالم .. ثم يرضى بما قسم الله تعالى ولكن الإنسان هو الإنسان :

إنه ضعيف :

لغروره الشديد .. ثم .. ليأسه السريع .

إذا أصابته نعمة .. تكبر على الناس .. وعن الطاعة .. ولم يف بالعهد .

وإن أصابه شر .. يسوء عمله .. ويختل توازنه .. ثم يهوى فى حفرة القنوط .

ولانجاة له إلا بالرضا .. واليقين الجازم بأن الله تعالى لم يحرم أحدا من كل المواهب .

بل إن الإنسان المغمور قد ينعم الله تعالى عليه بنعمة قد تبدو فى الهيئة الاجتماعية قليلة الجدوى .. لكنها أحياناً تكون أجدى على الحياة من كل مايستلفت الأنظار .

فقد ينفع الحديد .. حيث لاينفع الذهب

وينفع الورق .. حيث لاينفع الحرير

والماء .. حيث لايجدى العسل

وقد يكون السيف بتاراً .. لكن ماقيمته فى يد حرمت من العافية فلم تستطع أن تحمله .. ولاأن تستعمله ؟!

ثم إن هناك قوة عليا تصرف المواهب .. وتوزع الأرزاق .. وماكان لك سوف يأتيك .. على ضعفك .

وماكان لغيرك لن تناله بقوتك !

ليس عندى إلا الرضا بقضاء الله .. فيما أحببته أو كرهته لو إلى الأمور :
أختار منها خيرها لى عواقبا .. ماعرفته ولو أنى حرصت جهدى أن أدفع أمرا
مقدرا مادفعته فأرى أن أرد ذاك إلى من عنده علم كل ماقد جهلته

فلسفة الرضا :

إن من موجبات الرضا ماذكره ابن القيم :

أن العبد جاهل بعواقب الأمور . وسيده أعلم بمصلحته ثم إن العبد لايريد مصلحة نفسه من كل وجه .

ولو عرف أسبابها فهو جاهل ظالم .

وربه تعالى يريد مصلحته . ويسوق إليه أسبابها . ومن أعظم أسبابها مايكرهه العبد .

فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب .

قال تعالى :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾

وقال تعالى :

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً لكم ﴾

من توجيهات القرآن

يقول الحق سبحانه : ﴿ ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ (١) .

تمهيد :

يقولون : من لم يكن له أعداء .. فقد نقص حظه من ميراث الأنبياء : الأنبياء الذين كان من قدرهم أن يكون لهم أعداء يجدون فيما جاء به الأنبياء تحديا لهم .. وخروجا بهم من سجن الطبع إلى نور الشرع .

وذلك قوله تعالى :

﴿ وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ... ﴾ (٢)

وهكذا الشيطان الرجيم يبذل فطرة الشرفيه .. فيقعد للمحق بكل سبيل : يتحرش به . ويوسوس إليه .. كلما دعا إلى الحق .

ولكن النهاية دائما لحساب الحق :

﴿ فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾

وبين هذه البداية .. وتلك النهاية .. يتحرك المسلم . ليثبت جدارته بالدفاع عن هذا الحق .. على قدر استمساكه بالحكمة فى عراكه مع الباطل .. وتمثله روح الإسلام .. وهى السلام :

إن المنتصرين فى معارك الدنيا يعودون :

تكلل هاماتهم تيجان النصر .. ينثرون عليهم الزهور .

---

(١) الأنعام «١٠٨» .
(٢) الحج «٥٢» .

ثم يخصونهم بالجوائز ويزينون صدورهم بالنياشين .

أما فى الإسلام :

فكما تحدثت سورة الأنفال عقب النصر الأكبر فى بدر الكبرى : كان العتاب.. وكان التهذيب والتأديب .

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ (١)

إنه الجهاد : لالتصفية حسابات قديمة .. وإنما هو لنشر الإسلام إسعادا للبشر. وترقية للحياة .

توظيف سديد لطاقات الأمة :

وقصة الآية الكريمة التى معنا :

أن المسلمين كانوا يسبون أصنام المشركين .. فأرسل هؤلاء إلى النبى ﷺ إنذارا مفاده :

(لتنتهين عن سب آلهتنا .. أو لنهجون ربك)

فنهتهم الآية الكريمة عن سب آلهتهم .. لئلا يكون ذلك سببا لسب الله سبحانه وتعالى .

وذلك يعنى : توظيف طاقات الأمة وملكاتها فى مجالات الإصلاح .. بدل أن توظف خطأ فى معارك جدلية هامشية تستنزف طاقة الأمة فيما لايجدى .. لتحقق فى نفس الوقت أمانى أعدائنا الراغبين فى إحباط مسعانا .

تصريف طاقة الحماس :

وصحيح أن فى الأمة متحمسين مخلصين .. يتقربون إلى الله تعالى بلعنة الظالمين .

وصحيح أنهم الصادقون .. المخلصون .. وسوف يكرههم الكذابون والمنافقون ويعادونهم .

(١) سورة الأنفال ،١.

فكيف لايستمرون فى سبهم آلهتهم ثم إن هذا السب حق وطاعة فكيف ينهون عنه .

قال العلماء :

(رب طاعة يحكم الله أنها تكون مفسدة .. فتخرج عن أن تكون طاعة . فيجب النهى عنها لأنها معصية .. لا لأنها طاعة .. تماما : كالنهى عن المنكر .

فهو طاعة من أجل الطاعات .. فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية .. ووجب النهى .. عن ذلك النهى .. كما يجب النهى عن المنكر) (١)

طبيعة القوم :

ومما يحملنا على التجمل ووقف مسلسل المهاترات .. طبيعة العدو نفسه : فالذين تدعوهم هنا طراز من الناس غريب موغل فى العناد : تأمرهم بالمعروف .. فيتركونه .. ويتركون معه غيره !

وتنهاهم عن منكر .. فيفعلونه .. ويفعلون معه غيره !:

إذا دعوا إلى الحق .. دفعوا بالباطل !

وإذا دعوا إلى السنة .. قابلوها بالبدعة

إذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟!

وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ! ومادام الأمر كذلك .. فاسكتوا .. ويتكفل الحق تعالى بردهم عنكم .

إن سب آلهتهم ليس طريق هدايتهم .

وإنما : بالإرشاد .. تزيل هذا العناد .

---

(١) الكشاف للزمخشرى .

من آثار المهاترة :

إن الاسترسال مع هؤلاء العابثين يترتب عليه مايلى :

أ- عناد للخلق .

ب- بغض للحق .

جـ- جرأة علي الله تعالى .

د- انتصار التافهين فى المعارك الفارغة .. والتى يحاول الرذيل أن ينقل مافيه .. ليكون فيك !!

طبيعة أهل الحق :

ولأن طبيعة الدعاة منسوجة من معدن الحق ... فإن الأليق بهم أن يكونوا مثل الحق الذى يدعون إليه .. أطهارا أبرارا .. وإلا فإن الدخول فى معركة لاتنتهى مع المبطلين .. ماض بكم وبهم .. إلى غاية يرضونها .. ولاترضونها .

فالمفروض أن المبطل كالثوب الذى بلغ فى النجس حد التشبع ..فمهما قلت فيه .. فلن تضيف إليه سوادا .

أما أنت : فذلك الثوب الأبيض .. الذى تظهر فيه النكتة السوداء :

بلاء ليس يعدله بلاء ∴ عداوة غير ذى حسب ودين

ينيلك منه عرضا لم يصنه ∴ ويرتع منك فى عرض مصون

أهمية العلم :

يقول تعالى فى سورة البقرة :

﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم ﴾

على أى مستوى كنا .. فنحن محتاجون إلى العلم : سادة كنا .. أو متوسطين .. أو خدما :

فإذا كنا سادة .. فقنا .. وإن كنا متوسطين .. سدنا .. وإن كنا خدما .. عشنا .

فلاغنى عن العلم أبدا .. حتى قالوا : حياة النفس بالروح . وحياة الروح بالذكر . وحياة القلب بالعقل .. وحياة العقل بالعلم .

ولقد عد العلماء الجهل ثورة ينبغى ملاقاتها بسلاح العلم : ومن أجل ذلك قالوا :

احترس من ثورة الغضب .. وثورة الحقد .. وثورة الجهل .. وأعد لكل شئ من ذلك عدة تجاهده بها .. من الحلم والروية وذكر العاقبة . وطلب الفضيلة .

وكلما امتد بنا مشوار الحياة .. فسوف تتنامى معارفنا .. ولكن المصيبة الكبرى أن تتجمد رغبتنا فى مزيد من العلم .

فمن رضى عنه نفسه .. واقتنع بماحصله من علم .. فهو فى محنة .. ألا إن أفضل الأشياء .

التزود من العلم .. فإنه - كما قيل - :

من اقتصر على مايعلمه فظنه كافيا .. فإنه يعرض نفسه للتهلكة .

لأن من إفرازات ذلك :

أ- الاستبداد بالرأى.

ب- ثم تعظيم النفس .

جـ- ثم لايستفيد المستبد من غيره .

ومازالت قلة العلم عيبا يشين الفتى .. نبه إليه الإمام على فى قوله :

(أقل الناس قيمة .. أقلهم علما . ليس الجهل عارا .. وإنما العار فى رفض تحصيل العلم . تعلموا العلم فإنه زين للغنى . وعون للفقير . واحترس من ذكر العلم عند من لايرغب فيه .

إن الجاهل صغير .. وإن كان شيخا .. والعالم كبير.. وإن كان حدثا .

العلم أفضل الكنوز وأجملها .

خفيف المحمل عظيم الفائدة :

فى الملأ جمال .. وفى الوحدة أنس)

أعظم العلوم :

ومن أعظم العلوم تعلم العربية :

قال «شبرمة »

إذا سرك أن تكون فى عين من كنت فى عينه صغيرا .. ويصغر فى عينك من كان فى عينك عظيما .. فتعلم العربية .

فإنها تجربك على المنطق وتدنيك من السلطان .

ويقال :

النحو فى العلم بمنزلة الملح فى القدر .. والإعراب : حلية الكلام ووشيه .. وفى مقابل ذلك : كان اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه .

بقى أن نعلق على ختام الآية ٢٨٢ التى معنا فنقول :

إن الله تعالى يقول :

﴿ واتقوا الله .. ويعلمكم الله ﴾

لم يقل سبحانه وتعالى .. فيعلمكم الله .. بالفاء .

حتى لايظن ظان حصول ملكة العلم .. بمجرد حصول ملكة التقوى .. تلقائيا.

وربما كان التعبير بالواو مشيرا إلى مايلى :

أ- إن التقوى ملكة عملية .. والعلم هو النظرية الإسلامية .

ب- وبعد تحصيل ملكة التقوى .. لابد من كدح ومعاناة لتحصيل العلم النظرى .. والذى يحصله الإنسان لابمجهوده .. ولكن بسبب هذا المجهود .. وأنه لولا فضل الله .. ماكان هذا العلم فى عقولنا .

فعلينا أن نتقى .. وأن نواصل المسير .. ليأخذ الله تعالى بأيدينا إلى علم مالم نكن نعلم .

وقد لاحظ المفسرون أن ختم آيات المعاملات بصفة العلم .. وبعد الأمر بالتقوى (فى غاية المناسبة : لمايفعله المتعاملون من الحيل التى يجتلب كل منهم بها الحظ لنفسه .والترغيب فى امتثال ماأمرهم به فى هذه الجمل بأنه : من علمه وتعليمه تعالى يعنى :

فافعلوا ماأمرتكم به . وانتهوا عما نهيتكم عنه)

فى مجال التطبيق :

ورحم الله الإمام الغزالى :

لقد هاجمته عصابة فى الطريق ليلة .. وأخذوا كل متاعه .. ولكنه توسل إليها أن ترد إليه .. «صرة» العلم .. ويكفيه ذلك .

ولقد كانت الرغبة فى تحصيل العلم غلابة .. تكلف الطالب مالايطاق :

فهذا موسى عليه السلام يعزم على أن يركب الأخطار أو متون البحار حقبا

طوالا سنين عددا حتى يصل إلى العبد الصالح .. مع أنه كليم الله ورسول من أولى العزم .. وصاحب العصا التى فلق الله بها البحر .. والتى أبطل الله بها كيد السحرة .

بل إن هذه الرغبة قد تحولت إلى شوق عارم .. صار به تحصيل العلم متعة ذهنية وقلبية .

حضر الشريف التلمسانى - وهو صبى - حضر درس الأستاذ أبى زيد بن الإمام .

فذكر الأستاذ فى حديثه نعيم الجنة .

فقال الشريف :

هل يدرس العلم فى الجنة ياأستاذ ؟

فقال الأستاذ : نعم .

فقال مادليلك ؟

قال : قول الله تعالى : ﴿ وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (١)

والعلم يشتهى فهو موجود .

قال الشريف : لوقلت لى : لا .. لحزنت .. فالحمد لله .

فهذه رغبة فى العلم .. بل شوق إليه .. وكلف به .. لاتسعه الدنيا .. فيتخطاها إلى الآخرة .

وتعجب من طالب علم لايشغله ثواب الجنة وحده .. وإنما يشغله معه .. وقد يكون فوقه وهو العلم .

وتأمل فى الآية الكريمة كيف تفرد الأعين بميزة المتعة .. فإذا كانت الأنفس

---

(١) الزخرف الآية « ٧١ » .

تشتهى .. فإن العين تستمتع .. بما ترى وبما تقرأ .

إنما العلم للعمل به :

وما كان علم إلا ليعمل به .

قال ابن القيم رحمه الله :

على العالم أن يجاهد نفسه على العمل بالعلم .. بعد علمه .

وإلا .. فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضر .. فلن ينفع :

فإن اليهود كانوا علماء .. لكنهم لم يعملوا . فغضب الله تعالى عليهم .

أما بعد :

فنذكر فى المتعة بالعلم .. بائع الكتب .. أو بائع الأفكار :

لقد كان يشعر بمتعة خاصة كلما باع كتابا .. لا لأنه ارتفع رصيده بثمنه .. ولكن لأنه نقل إلى المشترى أفكارا مفيدة.

ثم نذكر بما قاله المربون :

الأيام : صحائف أعمالكم .

فخلدوها بصالح أعمالكم .

ويرحم الله الفاروق رضى الله عنه حين قال : إنى لأكره أن يكون أحدكم : سبهللا لافى عمل دنيا .. ولافى عمل دين .

من دروس التربية

كان ذلك يوم الجمعة .. والرسول ﷺ يخطب .. وكانت السنة عندئذ أن يخطب بعد انقضاء الصلاة .

وحدث أن الأمة كانت تمر بأزمة اقتصادية خانقة . فلما قضيت الصلاة .. وقام ﷺ يخطب .. رأى الصحابة رضوان الله عليهم تجارة جاء بها دحية الكلبى.. فلم يملك الصحابة أنفسهم التى اندفعت بهم خارج المسجد .. تاركين الرسول ﷺ يخطب فى نفر يعد على الأصابع .

وكان لابد من تقييم للموقف .. الذى تكرر ثلاث مرات .. ثم تربية المهرولين حتى لايعودوا لمثله أبدا .

وهذا هو الذى حدث بالفعل .

فقد نزل قوله تعالى :

﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ (١)

وقد كان قلبه الكبير ﷺ أصلح القلوب لاستقبال شحنة العقاب المر للصحابة المتسرعين فقال لهم : (لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى نارا)

بل .. لرجموا بحجارة .. كل حجر فيها موسوم باسم صاحبه الذى لن يخطئه !! ولكن الله سلم .. وبقى عقلاء الأمة .. وفى طليعتهم : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .. فمنع الله بهم العذاب عن الصحابة .

ولكن :

كيف صورت الآية الكريمة الموقف .. وإلى أى حد عبرت عن دقائق الخواطر النفسية ؟

---

(١) آخر الجمعة .

من دروس الآية الكريمة

إن الآية الكريمة لاتنعى عليهم رغبتهم فى الدنيا .. فذلك حقهم .. بل فطرتهم .

ولكنها تعاقبهم لمسارعتهم .. وهرولتهم .. والتى عبرت عنها الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ انفضوا إليها ﴾

وكتب اللغة تقول : النفض : ماتساقط من الورق والثمر .. من أفرع الشجر.

ويعنى ذلك :

أنهم لم يخرجوا فقط .. وإنما يبست فى قلوبهم مشاعر الانتماء إلى الرائد الذى لايكذب أهله - هذه اللحظة على الأقل - فكأنهم تطايروا هنا وهناك منفصلين عن الفرع .. عن الأصل المخضوض .. والذى يمنحهم الحياة .. مؤثرين مايفنى على مايبقى .

بل إن النفض لم يفرض عليهم .. وإنما هم الذين انفضوا .. فبادروا إلى الخروج .

والفعل المشدد مشير إلى أن الخروج كان عشوائيا .. غير مراع مشاعر النبى الذى يتركونه .. يكلم نفسه من فوق المنبر .

ولاتقول الآية الكريمة :

وبقيت قائما ..

ولكنها تقول :

﴿ وتركوك قائما ﴾

والترك هنا يبرز مرارة الحركة .. إذ كيف يتركون من جاءهم بالهدى .. مستقبلين رياح الردى ؟!!

****

من إيجابيات الموقف

ومع هذا فقد كان هناك إيجابيات تضاف لحساب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ... تجعل ماحدث استثناء من القاعدة .

أولا : إنهم لمعذورون فى تسرعهم واستعجالهم لما لاينبغى الاستعجال إليه :

أ- فلقد كان الجوع قاتلا .

ب- وغلاء الأسعار كان شديدا .

جـ- ثم إن التجارة كانت تغطى كل حاجتهم .. فقد كانت برا .. وزيتا .. ودقيقا .

د- وقد خافوا ألا تفى التجارة الوافدة بكل حاجات مجتمع يعانى المسغبة.

وثانيا : من الناحية الشرعية :

لقد سوغ لهم الخروج : ظنهم أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود وهو : الصلاة .

ثالثا : إنهم لم يسرعوا بالخروج إلا بعد أن تحققوا .. كما يفيد التعبير بـ« إذا » ومدخولها محقق الوقوع .

ثم إنهم « رأوا » .. رأوا بالعين المجردة .

وإذن .. فليسوا بالذين يتخذون القرار متعجلين بادى الرأى . مع احتفاظ الرسول بحقه فى البقاء بين يديه أولا وقبل كل شئ .

من دروس التربية

لم تشن الآية الكريمة الغارة عليهم .. وإنما هو العتاب .. وإن كان مر المذاق.. والعلاج الناجح .. والذى يجعل من الخطأ سبيلا إلى إعداد الفرد وفى بوتقة التجربة ليصلب عوده .

وتلك سمة من سمات التربية القرآنية للنفس الإنسانية .. إلى الحد الذى يكشف عن فشل مدارس التربية الحديثة حين تلجأ إلى العنف تقويما للخطائين .

ومن سماتها أن تهرب إلى الماضى باكية شاكية .. جاعلة من « لو » سلوانها .

مع أن لو .. تفتح للشيطان أبوابا .. والمقام فى الإسلام بـ « لولا » .

أن نفر من سجن الماضى .. إلى إيجابية الحاضر قائلين : لولا أن من الله علينا لخسف بنا .

لولا بقاء أبى بكر وعمر .. ومن تبعهما بإحسان لسال بين الوادى نارا .. ولأمطرنا الله تعالى بحجارة من سجيل فكنا كالعصف المأكول .

ولكن الله تعالى سلم .. فسلمنا !!

وهذا هو مافعله النبى ﷺ عبر مرحلتين :

الأولى : حين حذرهم من سوء عقبى ماصنعوا .. وعليهم أن يستمعوا .

والثانية : كان هذا الإجراء العملى . وهو : أنه ﷺ قدم الخطبة .. وأخر الصلاة .

وبذلك .. أعان المخطئ على أمر الله .. فسلم أولا ببشريته الخطاءة .. ثم أعانه على طاعة الله .. حتى لايعود .

الأصل القرآنى

ويستمد الرسول ﷺ منهجه هذا الواقعى فى التعامل مع النفس .. يستمده من الآية الكريمة التى معنا : ﴿ وإذا رأوا تجارة .. ﴾

فقد ذكر الله تعالى مابدر من الصحابة الكرام .. ثم أخذ سبحانه يذكرهم بقاعدة ينبغى ألا تغيب عنهم وهى المشتقة من قوله تعالى :

﴿ **قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾ :

أجل .. إن ماعند الله خير :

أولا : لأن الإنسان وإن حصل بالتسرع بعض المقاصد .. لكن ذلك يفوت عليه خير الآخرة .. وهو أبقى .

فى الوقت الذى لاتضيع الطاعة فيه ماقدر للإنسان من رزق ويبقى الثواب عند الله تعالى .

ومادام « عنده » سبحانه فهو فى الحفظ والرعاية يربيه له تعالى كما يربى أحدنا فلوه !

ثانيا : إذا كان هنا أكثر من جهة يجيئك الرزق بسببها .. فإن الله تعالى هو خير الرازقين .

أ- لأنه الرازق الحقيقى .. وأما غيره فمجرد سبب .

ب-ثم هو تعالى يرزق من عصاه وعاداه .. أما البشر فيقطعون عطاءهم تصفية لحساباتهم .

ثالثا : إذا كان فى اللهو نفع .. فإنه نفع موهوم .. وإذا كان فى التجارة نفع .. فإنه غير مخلد .. فلم يبق إلا اختيار العقلاء وهو :

إيثار الطاعة على جواذب الدنيا .. وأنه إذا كان هناك أمر مباح فى الأصل.. فإنه لايجوز إذا ترتب عليه فوت واجب .

من دقة التعبير القرآنى

ويبقى عطاء الآية الكريمة موصولا :

فقد يسأل سائل :

قدم تعالى « التجارة » على اللهو فى صدر الآية الكريمة .. ثم أخرها فى عجزها .

ويمكن أن تقول فى ضوء ماقرر المفسرون .[١]

كان الرسول ﷺ يخطب والصحابة مدركون قطعا أهمية الإنصات إليه .. فلما أقبلت الدنيا .. لم يكن ليغلبهم على البقاء منصتين إلا الشديد القوى .. وهو التجارة .

وماكان اللهو وحده بكاف فى الانصراف عن مجلسه ﷺ . ولذلك عاد الضمير على التجارة فقال تعالى :

﴿ انفضوا إليها ﴾

(فالتجارة أهم من اللهو . وأقوى سببا فى الانفضاض عن النبى ﷺ . لأنهم انفضوا من أجل العير . واللهو كان من أجل قدومها) [٢]

قال أبو حيان [٣] عن ابن عطية :

(تأمل أن قدمت التجارة على اللهو فى الرؤية . لأنها أهم وأخرت مع التفضيل . لتقع النفس على الأبين)

ويعنى ذلك :

أنه لما كان اللهو لاخير فيه مطلقا .. كان تقديمه أولى .. لأنه عندئذ يكون دليلا على خيرية ماعند الله خيرية تامة .. إذ اللهو خال منها تماما .

إلى جانب ماذكروه من أن تأخير التجارة لأنها أنسب بقوله تعالى عقبها والله خير الرازقين .. ولو أخر اللهو لكان فاصلا بين المتناسبين .

دروس فى الدعوة

ولعله لايكون استطرادا أن نذكر ماقاله المفسرون فى هذا المقام بيانا لعلة التقديم والتأخير .. وعود الضمير على واحد من المذكورين دون الآخر .

---

(١) راجع أضواء البيان ٣١٣/٨ .

(٢)،(٣) المرجع والموضع السابق .

قال المفسرون : وكذلك قوله تعالى :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها ﴾

قال صاحب أضواء البيان :

(أى الفضة : لأن كنز الفضة أوفر وكانزوها أكثر .

فصفة الكنز فيها حاصلة بصورة أوسع . ولدى كثير من الناس فكان توجيه الخطاب إليهم أولى .

ومن ناحية أخرى :

لما كانت الفضة من الناحية النقدية أقل قيمة وكان الذهب أعظم .. كان فى عود الضمير عليها تنبيه بالأدنى على الأعلى . فكأنه أشمل وأعم . وأشد تخويفا لمن يكنز الذهب) [١]

أما بعد

فإذا كان من خصوبة الآية أن كانت دليلا على الطريق :

بين يدى الدعاة .. والمربين .. والمفسرين .. واللغويين فقد أخذ منها الفقهاء حاجاتهم .. وصاغوا فى ضوئها أحكامهم :

فقد تتبعوا عدد الذين بقوا مع الرسول ﷺ بعدما انفض المتسرعون .. فرأوهم: مرة ثمانية ... ومرة أحد عشر .. أو ثلاثة عشر .. أو أربعة عشر .. أو أربعين .

وعلى هذا الأساس :

نشأ الخلاف بينهم فى العدد الذى تنعقد به الجمعة

وسبحان من هذا كلامه

---

(١) أضواء البيان ٨/٣١٥ .

نفسك :

إن لم تشغلها بالحق .. شغلتك بالباطل

يقولون : إن نفس الإنسان كالرحى .. كالآلة : تدور بما يلقى فيها : فإن ألقيت فيها حصى .. دارت به .. وإن كان حبا .. دارت به .

إنها أبدا لاتكف عن الدوران :

ليس هناك فترة استرخاء لاتعمل النفس فيها .. ليست هناك منطقة عازلة بين الحق والباطل .. تحميك من المسئولية .

وإنما القانون هنا :

أن الحق والضلال لاواسطة بينهما .. فمن تخطى الحق .. فقد وقع فى الضلال

وإذا كان الأمر كذلك .. فحاول أن تشغل نفسك بالحق .. حتى لاتورطك فى باطل .

إن أرض الفطرة ساحة رحبة :

فإن زرعت الطاعة .. حصدت ثوابا .. وإن زرعت المعصية .. كانت عقابا .

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون ﴾ (١)

فالحق سبحانه وتعالى يعرف نفسه إلى عباده توددا إليهم . وتلطفا بهم .

فذلكم الله الذى رباكم بنعمه رزقا من السماء .. ثم هو مالك الملك .. مدبر الأمر .. وأنتم معترفون بذلك ﴿ فسيقولون : الله ﴾وإذن .. فرتبوا على هذه المعرفة نتائجها .. بتقواه جل فى علاه .. وإلا .. فلو نكصتم على أعقابكم .. فقد وقعتم فى الضلال .. وفى ذات اللحظة .. فليس عن يمين الحق .. ولاعن شماله .. إلا الضلال !!

(١)يونس :٣٢-٣٣.

وكما يقول الرازى :

إنه ربكم الحق : الثابت ربوبيته .. ثباتا لاريب فيه .. وإذا ثبت أن هذا هو الحق . وجب أن يكون ماسواه ضلالا لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين .. ويمتنع أن يكونا باطلين .. فإذا كان أحدهما حقا .. وجب أن يكون ماسواه باطلا .

﴿ فأنى تصرفون ﴾ .. إلى أين تتجهون ؟!

كيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر .. القاهر ؟!! إذا أدرتم ظهوركم للحق .. وللتوحيد .. وللسعادة .

فإلى أين تذهبون ؟

إلى الباطل .. والشرك .. والشقاء .

وعجيب أمر هذا الإنسان :

أحيانا يعمل العمل رئاء مخلوق مثله .. ثم لايعمله للخالق سبحانه .

ويبخل بماله .. وربه يستقرضه .. فلا يقرضه .

ويرغب فى صحبة المخلوقين . والله ربه .. يدعوه إلى صحبته ومودته .. فلايستجيب .

ومن ثم .. استحق العذاب .. جزاء وفاقا .. لأن سنة الله تعالى الماضية فى الخلق هى :

﴿ كذلك حقت كلمة ربك علي الذين فسقوا أنهم لايؤمنون ﴾

وكيف يؤمنون .. وقد فسقوا .. قد خرجوا عن الخط المستقيم : إن الحبة التى ندت من يد الفلاح إلى قارعة الطريق .. ستتخطفها الطير .. أو تهوى بها الريح فى مكان سحيق .

والسمكة التى خرجت من البحر .. سوف تموت .

ويرحم الله ذلك **العالم الذى شغل نفسه بالحق :**

لقد كان يأتيه الضيوف الفارغون .. ممن لديهم وقت وافر يأتونه ليضيعوا أوقاتهم عند من لايملك وقتا .

لكنه كان أذكى منهم وأتقى . حين كان يخصص وقت حضورهم لبرى أقلامه.. ذلك العمل الذى به يستطيع أن يجاذبهم أطراف الحديث .. لكنه فى نفس الوقت عامل آمل .

ويرحم الله **الشاعر المؤمن « لبيد بن ربيعة » :**

لقد طلب منه عمر رضى الله عنه أن ينشده شعرا وذلك بعد إسلامه فاعتذر عن قول الشعر بعدما عرف سورة البقرة وآل عمران .

وبينما الساهون اللاهون يعبدون الدنيا التى تذلهم فتستحم بدموعهم وتتضمخ بدمائهم .. فإنه يستغنى بالقرآن وإنه لحظ لو تعلمون عظيم

القرآن وحرية الإنسان

من الأمور المقررة فى الفكر الإنسانى : مسئولية الإنسان المباشرة عن أعماله الاختيارية .

لقد منحه الله تعالى إرادة حرة .. ولد بها . ويباشر حركته اليومية فى ظلها محكوما بهدى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فإن تراجعت قيمة الحرية .. تراجعت فى نفس الوقت صلاحية الإنسان للحياة الكريمة .

من أجل ذلك **حرص الفكر الإسلامى على أمرين** أشار إليهما المربون :

أ- التنويه بقيمة الحرية . وتمكين المسلم منها .

ب- التدريب المستمر على مباشرة أسبابها .. حتى تظل منتصبة فى وعى المسلم.. تحدد له الغاية .. وترسم أمامه الطريق .

وكان من أبرز معالم القرآن هنا إتاحة الحرية للإنسان فى اختيار عقيدته .. بلا ضغط أو إكراه .. ليكون الإنسان سيد مصيره .. فإما إلى الجنة .. وإما إلى نار .

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [1]

فقد أسند فلاح التزكية . وخيبة التدسية إلى الإنسان نفسه .. ومن رحمته تعالى بالإنسان أنه لم يحمله تلك المسئولية الكبرى إلا بعد أن صاغه على نحو يؤهله لها وذلك قوله تعالى :﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ﴾ [2]

---

(١) الشمس ٧:١٠ .

(٢) البلد ٨:١٠ .

ولم يبق إلا أن يمارس حقه فى الحركة المباركة على مايقول سبحانه عقب ذلك:

﴿فلا اقتحم العقبة ﴾

واقتحام العقبة يعنى انطلاق الإنسان فى كل اتجاه :

تحريرا للعبيد .. ليكونوا مثله أحرارا .

وإطعاما للفقير .. واليتيم .. والمسكين .. قبل أن يبيعوا حرياتهم وكراماتهم من أجل لقمة العيش .

على أن يصدر ذلك كله من معين العزة وهو : الإيمان الذى يحرر الإرادة .. ثم يتوج ذلك كله بالتعاون علي أن تظل هذه الروح الإنسانية نهرا جاريا بالعطاء.. فلا يتوقف أبدا .. وتلك سمة المجتمع الحر .. الذى منحته الحرية طلاقة الإرادة فى اتجاه الخير .. فسعد وأسعد .

نماذج وصور

حين شـــرع ﷺ يبلغ آيات ربه .. كان على أوفى مايكون تقديرا لحرية الإنسان .. استجابة لأمر ربه سبحانه وتعالى :

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾

أى أنه ماجاءهم ليسيطر عليهم .. ولاكان جبارا يخضع أعناقهم للحق :

﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ (١)

﴿ وماأنت عليهم بجبار ﴾ (٢)

(١) الغاشية « ٢٢ » .
(٢) ق « ٤٥ » .

ولكنه يعظهم .. برفق ولين .. أن يتفكروا : فردا .. فردا .. أو اثنين اثنين وسوف يصل بهم التفكير إلي تقرير الحقيقة التى أكدتها الآية قبل أن ينطقوا هم بها وهى :

﴿ مابصاحبكم من جنة ﴾

ولكنه نذير مبين .

لقد كان ﷺ ملتزما بأمر ربه .. لكنه بنفس القوة لم يلزم أحدا .. لأن الاقتناع ينبع من الذات أولا .. ولايفرض من فوق .. أو من وراء إرادة الإنسان .

إن الكم الهائل من الحرية يؤدى بحق إلى كم هائل أيضا من الحضارة والازدهار .

وإلى هذا المعنى تشير آى القرآن الكريم والتى تعرض الحقائق .. ولاتفرضها : يقول سبحانه :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ (١)

فهو ﷺ مأمور أن يكون من المسلمين .. بل أن يكون أول المسلمين .. وأن يعرض حقائق القرآن متلوة .. على مسامع المدعوين .

وعندئذ تنتهى مهمته .. لتبدأ مهمة المدعوين :

فمن اهتدى .. فقد سعد بإيمانه .. ومن ضل .. فلايتحمل هو ضلاله .

بل يتحمل الضال مسئولية ضلالة .

ولايملك له الرسول إلا تذكيره بوظيفته ﷺ وأنها فقط - وحينئذ - : الإنذار.. التخويف من عذاب الله تعالى .

---

(١) النمل ٩١:٩٢ .

وإنك لتحس مافى الإنذار من دعوة إلى تحضر الإنسان وتحرير إرادته ليكون خوفه فقط منه سبحانه وتعالى .. لامن سواه من العبيد .. وتلك سمة المؤمن الراغب فى الكمال .

ومن المعلوم : أنه ليست هناك حرية مطلقة .. وإنما هى مقيدة بحق الله تعالى عليك .. وحق المجتمع أيضا عليك .. حتى لاتصير فوضى .. يشقى بها الإنسان .

وهذا مايحدث فى الغرب .. عندما صارت الفوضى بديلا للحرية .

لقد انفلت العيار هناك :

فالغرب لم يقيد الحرية .. التى لم يقيدها بضوابط .. فاصطدمت بحقه تعالى .. ولم تعمل حسابا لحريات الآخرين .

وصار الأمر على ماقال أحد الباحثين .

ليست الفوضى الجنسية فى الغرب إلا مظهرا من مظاهر التطرف في مفهوم الحرية وتطبيقاتها . واصطدامها بسنن الخالق وقوانينه فى الاجتماع البشرى .

ودليل ذلك :

أن الغربى لايضيره بل يسره أن تصحب نساؤه الأصدقاء وتحضرهم إلى غرف النوم .

ولكن ثائرته تثور ولاتهدأ . إذا تعرضت المرأة للاغتصاب فثورته ليس من أجل عفة المغتصب . وإنما من أجل حرية الاختيار .

آمالنـــا

بيـن الواقــع .. والمتــوقع

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ (١)

قبل هذه الآيات جاء قوله تعالى :

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين ﴾

عندما شغب ابن أبىّ على الحق قائلا :

إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى كمثل النصارى ورأيهم فى عيسى نزلت الآية الكريمة مفنده هذه الشبهة بأن طاعتنا للرسول .. إنما هى بوصف كونه رسولا مبلغا عن الله تعالى .

وإذا كانت وظيفته البلاغ عن الله سبحانه .. فطاعته ﷺ من صميم طاعته تعالى .

ومحمد ﷺ بهذا المعنى قدوة .. وهو خيار من خيار .

يقتدى بمن هداهم الله تعالى واصطفاهم .. وذلك قوله تعالى :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾

ومن لطف الله بالبشرية أن ملأ وعيهم بهذه القدى الحسنة :

---

(١) آل عمران «٣٣:٣٦» .

الذين اصطفاهم .. فلاكدورة فيهم . صفاهم من السيئات .. وزينهم بالحسنات .. جسميا ومعنويا .

وكانوا بشرا : ليمكن التأسى بهم .. ثم كانوا فوق ذلك معصومين لتتأكد الثقة بهم .

فتم درس التربية كمالا .

وكما أن المنافقين ﴿ بعضهم من بعض ﴾ .. كلهم أروغ من ثعلب .

فإن المؤمنين ﴿ذرية بعضها من بعض ﴾ .. أطهار أبرار ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

وإذا كان الملحدون يخربون بيوتهم بأيديهم حين تتعاكس اتجاهاتهم فإن المؤمنين يتساندون وبجهودهم المشتركة يتعاونون على البر والتقوى .. يفهمون الحق ويجهرون به .. ثم يطبقونه عمليا .

على أن هذا الاصطفاء لايتم عشوائيا كما يزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه وإنما هو صنعة السميع العليم الذى هو أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد دل منهج الاصطفاء على حقيته حين صنع الله تعالى به نماذج عملية شهدت لهذا المنهج بالنجاح والقدرة على صياغة النفوس صياغة جديدة فريدة .

وكمثال على ذلك : تجئ قصة امرأة عمران :

لايهمنا اسمها .. ولكن ماهو عملها ؟

ماهو عملها الذى تستطيع كل أم فى الماضى والحاضر والمستقبل أن تتمثله؟

كانت أم مريم عقيما .. حتى شاخت .. ولم تنجب .

وكان من تدبير الله تعالى- وإذا أراد أمرا يسر له أسبابه - أن رأت طائرا فى عشه يطعم فرخا له .. فانبعث فى قلبها الشجن فتحركت غريزة الأمومة من تحت ركام السنين الطوال .. وتجدد أملها فى الولد .. فحقق الله سبحانه أملها .

فكانت امرأة عمران أملا فى وعى الملايين ممن لم ينجبن .. قائلة بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال لهن :

كل شئ ممكن .. والذى خلق السنن قادر سبحانه على إحباط مفعولها .. فليظل الأمل موصولا ..

أعلل النفس بالآمال أطلبها ∴ ماأضيق العمر لولا فسحة الأمل

فإن تحقق فبها .. وإن لم يتحقق .. فقد نجونا به من الوقوع فى هوة السخط على قضاء الله تعالى .

وكان الأمر على مايقول الشاعر :

منى : إن تكن حقا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

إذ قالت امرأة عمران ....

كان المتوقع أن تتجه آمال الأم العجوز راغبة أن يكون ولدها قرة عينها بين يديها . تجدد الحياة فى شخصه مرة أخرى .. تسرح وراءه بعينها وهو مدلل .. لا يرد له طلب .

ولكنها نذرته ليكون محررا .. غير مشغول بشئ آخر .. غير خدمة المسجد قانتا لله حنيفا .

وليس من قبيل المصادفة أن تقول : محررا .. لتعلم الأجيال أن الحرية الحقيقة إنما هى وقف على من خص الله تعالي بعبادته وسعيه أولئكم هم الأحرار حقا .. أما غيرهم ممن يعلقون أمانيهم بمنصب أو جاه .. فأولئك هم التجار.

ولقد اتجهت الآمال إلى أن يكون المولود ذكرا :

أولا : فالذكر دون الأنثى أقدر على مشقات العمل .. ثم هو خال من عيوب النساء .

إلى جانب أن اختلاطه بالناس لايستجلب شبهة .

ثانيـــا : فإن امرأة عمران هنا تعبر عن أمل الفطرة فى الذكر ابتداء ولابأس .. ولاداعى لرد الأمل فى الذكر مدحورا .

ولكن المهم أن يجئ على شرط الإسلام صالحا .. مصلحا.

﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ وإذا كانت الرغبة فى الذكر غلابة .. فإن هذه الرغبة سوف تنحسر إذا شاء الله تعالى أن تجئ أنثى .. فاختياره تعالى أوفق بنا .. وأفضل لنا .. ﴿ وليس الذكـــر كالأنثى ﴾ .

فالأنثى حين يختارها الله تعالى .. أفضل .

وما أكثر الذين يستقلون ماأوتوا من الإناث.. طامحين إلى زوجة أخرى طامعين فى الذكر.. ثم تكون النتائج على غير مايشتهون .. فقد يجئ الذكر فعلا ولكنه يولد فى ظروف عصيبة .. لاينال فيها حظه من التربية.. وعندئذ .. يكون الندم.

ولات ساعة مندم

وما تزال رغبة الأم عارمة فى أن يكون صالحا مصلحا ..

فلما جاءت أنثى سمتها «مريم» ومعنى « مريم » العابدة.

ثم سألت ربها تعالى أن يحميها من شياطين الإنس والجن .

وإنها للفتة قوية إلى مسئولية الأسرة عن الذرية .. التى يفرض عليها الإسلام أن تحدد الهدف من تربيتها على تقوى من الله .

ثم تركز الجهود .. حماية لهم من قرناء السوء .. لتبقى ثمرات التربية فى الارتفاع .. ولاتهبط إلى القاع .

وبعد :

فعلى فرض ضياع الأمل فى الذرية .. فلاداعى لليأس .. لأنك أيتها الزوجة .. ولأنك .. أيها الزوج تستطيعان تحقيقه بصورة ما :

****

فما أكثر الأذكياء .. والذين يحبط الفقر فيهم مواهبهم وإذن .. فمن الممكن أن تسهما فى بناء المدرسة .. تشقان بها ألف طريق وطريق إلى تحصيل العلم .. أمام هؤلاء .

وغدا تدفع إلى الحياة بالمدرسين .. والمهندسين .. والأطباء .. والمجاهدين .. ومع كل درس يلقى .. وكل طريق يمهد .

ومع كل ألم يخففه طبيب .. وكل نصر يحققه مجاهد .. مع كل هذه الملايين من المواقف .. وإلى أن تقوم الساعة .. سيكون لكما من الأجر مايعجز الخيال عن ملاحقته .

ورب أخ لك لم تلده أمك .. وبالمثل نقول :

ورب ولد لك .. لم تلديه .. فتقدمى .. فالمستقبل الواعد .. يناديك !

ألا إنها بنوة الروح .. وإنها لفوق بنوة النسب !!

أيها الطالب فخرا بالنسب	إنما الناس لأم ولأب
هل تراهم خلقوا من فضة	أو حديد أو نحاس أو ذهب ؟
أو ترى فضلهم فى خلقهم	هل سوى لحم وعظم وعصب ؟
إنما الفضل بحلم راجح	وبأخلاق كرام وأدب
ذاك : من فاخر فى الناس به	فاق من فاخر منهم وغلب

غوث اللهيف

إذا حاول الشيطان التحكم في مصير الإنسان .. فإن الحق تعالى مع الذين اتقوا .. مع الذين استجابوا له طائعين .. فكانوا أهلا لهذه المعية بطاعته تعالى.. والتى تصير طوق النجاة المنقذ لهم من الشيطان وجنده .

وها هوذا سبحانه وتعالى يناديهم .. لينقذوا أنفسهم بالعبادة من شراكه المنصوبة بعبادته سبحانه وتعالى .

وذلك قوله تعالى :

﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون.الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (١)

ولاحظ من أهمية العبادة أن **رءوس الآى** قبل هاتين الآيتين كما لاحظ المفسرون كانت هكذا :

لايبصرون .. لايرجعون .. بالكافرين .

لكنه تعالى وعند التكليف بالعبادة .. بالإنقاذ من كيد الشيطان عندئذ بغير رأس الآية الكريمة لتكون رائية على كل شئ قدير ثم ليرجع السياق بعدها إلى النون فى قوله تعالى ﴿ تتقون ﴾ .

وذلك بأن فى تغيير ختام الآيات هنا .. مايشعر بأهمية النقلة إلى التكليف بالعبادة .. وهو سبيل النجاة من كيد الشيطان .

فإذا لم ينفر المسلم مستجيبا لأمر الله .. ماذا يحدث ؟

سيفر من عذاب موهوم فى الدنيا .. إلى العذاب المحقق فى الآخرة .

وعلى المسلم أن يستجيب لنداء ربه تعالى .. والمؤيد بما يحمل على هذه

(١) سورة البقرة « ٢١-٢٢ » .

الاستجابة فهو :

ربكم .. الذى تتقلبون فى نعمائه .. والذى خلقكم من عدم .. ثم أمدكم بالماء .. والزرع .. ممايجعل هذا الخلق ممتدا .

إننا لانملك ضوء الشمس .. الذى يغمر الحقول .. كما وأننا لانملك تلك العصافير التى يملأ الله تعالى بها ضفائر هذا الشجر !

وإنها لشواهد على وحدانيته تعالى .. ممايحمل على الفرار إليه .. خوفا منه سبحانه .

وليس الخائف هو من يبكى .. ويمسح عينيه .. بل إنه : من يترك مايخاف أن يعاقب عليه .. ومن خاف شيئا من الدنيا .. هرب منه .. ومن خاف الله تعالى .. هرب إليه .

﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾ (١)

إن الخوف من الله تعالى .. لامن الخلق .. ذلك بأن الخلق غرباء فى هذه الدنيا .. فلاتخف من الغرباء .. لأنهم دائما على سفر .

فواصل المسير إلى ربك .. إلى الهدف الذى رسمه لك .

ولايهم أن يكون هدفك بعيدا .. المهم : أن تراه واضحا .. وثابتا .

وأولى مراحل الطريق : الاستغفار .. محاولة غسل أوضار الماضى .. لنعد أنفسنا بهذا التطهر لتلقى فيوضات الرحمات :

إن المسلم إذا استغفر ربه وأناب .. كان من الاستغفار فى حصن حصين .. في قرار مكين .

فليس للشيطان إليه من سبيل .. وليس له فى داره من مقيل .

فإذا كان المستغفر شابا : هنأت الملائكة بعضهم بعضا بهذا الفتى العائد إلى

---

(١) الذاريات « ٥٠ » .

ربه قانتا.

لقد انتصر الشاب على نفسه النزاعة إلى الإثم .

وأطفأ فى كيانه نيران الشهوة .. وأسكت صوت الغريزة .. فارتد الشيطان خاسئا وهو حسير .

ولله شباب طلقوا الدنيا .. فكانوا حجة على الناس .. عندما تجاوزوا بريق الدنيا .. لاتفتأ تغريهم .. فترميهم بكل رغيبة يسيل لها اللعاب .

ولكنهم فهموها :

إنها الدنيا .. والتى تسمى دنيا لدناءتها .

ضحكت فيها وإنى قد بكيت بها .·. فالجهل أضحكنى والعقل أبكانى

وإنها لتضحك حينا .. لتبكينا أحيانا

عشت وامتدت حياتى لأرى .·. فى الثرى .. من كان قبلا فى القمم

وإذا انحط زمان لم تجد .·. عاليا ذا رفعة إلا الألم

رجال فوق كيد الشيطان

إذا بلغ المسلم سن التكليف .. بدأت معركته مع الشيطان الرجيم :

بدأت .. على جبهات متعددة .. وبمختلف الأسلحة كذلك :

بسلاح الشبهات يحاول به إسقاطه فى الكفر .. ثم بسلاح الشهوات .. إرادة الولوغ فى حمأة الخطايا .. وقد يغرى الشيطان بالصغائر .. والتى نستهين بها فتقودنا إلى الكبائر .. التى مهدنا الطريق بالصغائر إليها تمهيدا .

وذلك قوله ﷺ فى خطبة الوداع .. ولكنه رضى بما تحقرون من أعمالكم [١]

وقوله : إياكم ومحقرات الذنوب [٢]

وهكذا قال علماؤنا .. الذين أكدوا أن المعركة مع الشيطان مستمرة .

فمازال فى جعبة الشيطان المزيد .. المزيد :

من مثل التسويف : يقول العاصى : سوف أتوب غدا .. وهكذا يلف به ويدور .. حتى يسوف التوبة .. ثم تنتهى الحياة .. قبل أن تبدأ الحياة !

وقد يوسوس له الانغماس فى مباحات لاقيمة لها .. إلى الحد الذى يبرد فيه إحساسه بمهمات الأمور .. فيتخلى عن دوره الإيجابى الفعال .. هذا الدور الذى يتحمل مسئوليته كبار النفوس .. ومنهم القائل :

أنهينهيها عن بعض مالا يشينها ∴ مخافة أقوال العدا : فيم أو لما ؟

ومن حيله : دفع المكلف إلى الفضول .. وترك الخير الفاضل .. وهو الأهم.. فيأمره بمائة باب من الخير . ليتوصل إلى مايلى :

أ- إلي باب واحد من الشر

ب- ثم البعد به عن باب مهم من الخير

---

(١) مسند أحمد ، ١٢٦/٤.

(٢) مسند أحمد ، ٤٠٢/١.

فإذا كان ذلك المكلف عالما .. ترتب على ذلك : بعده عن جمهوره المشوق إلى علمه .. بينما قد اعتزلهم مكتفيا بالركوع والسجود .

وتذكر هنا ماروى من أنه :

ذكر لرسول الله ﷺ : رجل عابد .. ورجل ورع .. فقال :

لايعدل الورع بشئ .

ذلك بأن الورع هو الجانب العملى من الإنسان .. لأنه يكلف صاحبه مالايطاق من الأعمال والمواقف .. فيتحملها صابرا محتسبا .. فارا إلى ربه من الحياة الدنيا .. بمافيها ومن فيها .. محاسبا نفسه حتى على النقير والقطمير .

ومنهم **العابد الزاهد « مورق العجلى »** التابعى الجليل :

لقد ظل عشرين عاماً يدعو ربه بشئ .. ولم ييأس .. فلما سئل عن ذلك الشئ قال :

ألا أتكلم فيما لايعنينى !!

ومايلقاها .. مايصبر عن لغو الكلام .. إلا الذين صبروا .

هؤلاء الذين يصومون عن فضول المقال لكنهم ملتزمون بفضائل الأعمال .

ورائدهم « مورق العجلى » نفسه والذى كان بارا بأمه إلى الحد الذى كان يخلو بها .. ويفليها !!

وإلى البر .. والورع .. أضافوا الكرم .. حتى كان أحدهم يأتى المسجد ليصلى .. ثم يرى ضيفا يصلى النافلة .. فيصلى الفريضة خلف هذا الضيف .. حتى لايسبقه أحد إلى استضافته .. فكانوا حجة أقامها الله تعالى فى الأرض .. على غيرهم من الكانزين .. الذين قال الشاعر فيهم :

جود الرجال من الأيدى .. وجودهمو .·. من اللسان .. فلاكانوا .. ولاالجود .

بالأخلاق .. لابصخب الأسواق

يخرج المسلم من بيته مع طلوع الشمس .. والإحساس بالمسئولية يلح عليه .

إنه دائما يسأل نفسه :

ماأردت بلقمتى ؟ ماأردت بنظرتى .. بخطوتى .. بكلمتى ؟

لقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لايخطو خطوة إلا وله فيها هدف.

فإذا كانت القضية هى الكلمة .. أو الرأى نبديه .. نختار به الرجل القيادى فإن المسئولية تبدو عندئذ أشد خطرا .. وعلى الإنسان فيها أن يكون أشد حذرا وأبعد نظرا .

وإذا كان الرجل يسعى يومه فى طلب رغيف الخبز .. أفلا كلف نفسه عناء التدقيق فى اختيار من ينوب عنه فى إدارة حياته .

إنها إذن المسئولية الكبرى :

مسئولية الاختيار التى لن ينوب عنك فى حملها أحد .. أنت وحدك خلف الستار سيد مصيرك .

لو كان لك بلايين من الإخوة والأخوات .. فسوف - مع هذا العدد الضخم - تكون لك شخصيتك المتميزة .. المسئولة .

ولو أطاع البشر جميعا .. ماانتفعت بطاعتهم .. ولو عصيت أنت .. ما نفعوك .

وإذن .. فتقدم وتحمل مسئولية الاختيار .. فأنت فى اختبار .

فى يوم الامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان .

إنك لبنة فى الصرح الكبير .. فاحرص على ألا يؤتى البناء من ناحيتك ..

وبين يديك هندسة البناء بناء المجتمع الإسلامى .. القائم على :

أ- احترام القيم الأخلاقية

ب- النظام

جـ- البراءة من التهريج والصياح

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

ليلينى منكم أولو الاحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم .. ثلاثا .. وإياكم وهيشات الأسواق [١]

إن القائد هنا .. فى المقدمة .. ومن بعده : الأحسن خلقا . ثم الأرشد فكرا.. والأكثر علما .. وهكذا .

الأخلاق الطيبة فى الطليعة .. ثم العلم بعد ذلك .. الزكاء .. قبل الذكاء .

إنهم الصفوة التى تشكل الساعد الأيمن لقائد الأمة .. وهم الذين يصححون له .. إذا أخطأ ثم يعينونه إذا أصاب .

والأمة من ورائهم تدعو لهم . وتشد من أزرهم .

لكن هذا البناء العالى .. لن يظل كذلك وطيد الأركان على مر الزمان إلا بالتخلى عن كل مايضعفه .

من أجل ذلك يحذر ﷺ من كل مايهزه

هو المقصود بقوله : ﴿ وإياكم وهيشات الأسواق ﴾

وهيشات الأسواق هى :

الاختلاط . والاختلاف . والمنازعة . والخصومات . وارتفاع الأصوات . ثم

---

(١) رواه مسلم .

اللغط والفتن .. ماظهر منها ومابطن .

وماكان لهذا التهريج أن يبرز قيادات تحمل مسئولية الإصلاح .

كما وأن الرجل المنتخب .. لايكون اختياره مغنما أو مأثما وإنما الأمر على ماقيل بحق :

من ولى على أمر .. فكأنما ذبح بغير سكين

يعـــنى :

أن الذبح بالسكين يريح الضحية فى النهاية . ولكن الذبح بغيرها موت بطئ.. بل هو مجموع ميتات .. إنها مسئولية الرجولة التى تبدأ بها المتاعب .. التى يواجهها مضحيا بذاته .. فى سبيل أمته إنسانيا .. غير متعصب شعبيا .. لكل الناس وهذا هو شرفه الذى لاتدانيه دنيا أذلت غيره من الطامعين .

وإذا كانت الأمة تصان بالحصون والقلاع .. والطيران .. فلاقيمة لهذه كلها إلا برجال على مستواها .. علما وخبرة .. وعملا .

والله لايضيع أجر العاملين

الإنسان فى الآخرة

تساءل أحد العلماء عن قوله تعالى فى سورة الزخرف :

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (١)

ثم عن قوله تعالى فى سورة ق (٢) :

﴿ لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾

تساءل : أى الآيتين أدل على تكريم الإنسان وطلاقته ؟

ونقول : إن آية الزخرف تتحدث عن متعة حسية تتمثل فى : جلسة أهل الجنة الهادئة الوادعة .. على الأرائك ناعمين .. بينما يطوف عليهم غلمان كأنهم اللؤلؤ المنثور .. بأوانى الذهب المترعة بما يشتهون من الشراب .. وماخفى من نعيم الجنة أعظم .

ويبدو - والله تعالى أعلم بمراده - أن آية الزخرف تتحدث عن الجانب الحسى من نعيم الجنة بدليل أنها :

تركز بالذات على متعة العين بماترى من صور هذا النعيم .. ومتعة العين : أشمل وأعمق .

وإذا كان النعيم الحسى مطلوباً مرغوبا .. فإن هناك متعة أخرى أعمق أثرا وهى الإحساس بطلاقة القدرة .. والحرية فى اختيار البدائل .. وذلك ماتشير إليه آية سورة «ق» :

﴿ لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾

فاللام فى قوله تعالى : ﴿ لهم ﴾

---

(١) سورة الزخرف «٧١» .

(٢) سورة الزخرف «٣٥» .

تفيد الملكية .. والإحساس بأنك مالك الشئ يرضى غريزة حب التملك فى كيانك .. فما بين يديك : ليس عارية مستردة .. ولكنه هبة لك .. ثم هى ملكية خاصة بهم بدليل تقديم الجار والمجرور ﴿ لهم ﴾ إنها ليست شركة تمليك يحس فيها الإنسان بيده مغلولة بيد شريكه فلا تكون له حرية الحركة .. وإنما التصرف فيها مطلق .

ثم هى ملكية محروسة بالأمن .. فأنت فيها .. فى الجنة .. فى عمقها .. فى الوسط .. بعيد عن الأطراف .. وإذن .. فأنت بمأمن من السقوط .

تماما كما كنت فى الدنيا من أمة الوسط .. التى لاتسقط أبدا .. ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ .

وكل مايشاؤه أهل الجنة حاضرا بين أيديهم .. فإن لهم ما يشاءون .

«ما» أى كل مايخطر على بالهم .. مهما كان .. إن التعبير «بما» يفيد الإبهام والعموم .. فلتذهب النفوس فى رغائبها كل مذهب .. فهو حاضر لايغيب ويكفى أن تنظر إلى الطير معجبا ليسقط بين يديك مشويا ثم هى مشيئة ممتدة .. متجددة .. لايقف فى سبيلها شئ ..كما يفيد التعبير بالمضارع .. ﴿يشاءون﴾ .

ثم هى مشيئة الفرد .. فى ضمن مشيئة المجموع .. فأنت حر فى جو من الحرية التى تزكو وتتحرك .

فلك مايشاء العقل .. من المعرفة .. وماتشاء الغرائز من الإشباع .. وماترغب الجوارح من متعة حلال .

ويبرز هنا درس للدعاة : إننا إذا كنا ندعو الناس إلى حقائق الدين فلنسلك إلى أهدافنا طريقين :

طريق الحوار .. واستنفار قوى الإنسان وملكاته .. لتكون على مستوى الإسلام .. التزاما بحقائقه .

وينبغي ألا ننسى ذلك الجانب الحسي الجمالي .. نلوح به .. فإن في النفوس ميلا إليه . وإقبالا عليه .

والذين يحاولون طمس معالم الجمال يحملون الناس على النفرة منهم ..

أيهذا الـــداعي ومــابك داء .·. كـــن جميلا ترى الوجود جميلا

إن شـــر الجنـــاة في الأرض نفس .·. تتـــوقى قبل الرحيل الرحيــلا

وترى الشوك في الورود وتعمى .·. أن تـــرى فوقها الندى إكليلا

هـــو عـــبء عـــلى الحياة ثقيل .·. مـــن يظـــن الحـــياة عبئا ثقيلا

ضرورة اليقظة

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ﴾[١]

يقول : (نبه الله سبحانه على صفات المنافقين . لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون . فيقع بذلك فساد عريض . من عدم الاحتراز منهم . ومن اعتقاد إيمانهم. وهم كفار فى نفس الأمر . وهذا من المحذورات الكبار : أن يظن بأهل الفجور خير) .

ثم يقول بعد ذلك تعقيبا على أيمانهم :

(ولهذا يؤكدون فى الشهادة « بإن » و « لام التأكيد » فى خبرها . كما أكدوا قولهم : آمنا بالله .. وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك) .

ضرورة اليقظة

ويصبح الحذر أو اليقظة ضرورة إذا كان التعامل مع اليهود الذين حكى القرآن عنهم أنهم :

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾. بإظهارهم ماأظهروه من الإيمان . مع إسرارهم الكفر . يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك . وأن ذلك نافعهم عنده. وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين .

ضوابط الحذر

ولكن المسلم ليس له أن يصل بالحذر إلى مالانهاية .. وليبق للأمل فى هداية المدعو مساحة فى قلبه .

يعينه على ذلك أمران :

---

(١) سورة البقرة «٨» .

الأول : قوله تعالى ﴿ إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾

ومادامت الهداية بيده تعالى .. فإن دورنا ينتهى عند هداية الدلالة .. أما هداية الإجابة فهى إلى الله تعالى وحده .. دون سواه .

والثانى : ماروى من أن رجلا مسلما من مهاجرى الحبشة قال عن عمر رضى الله عنه وقت أن كان مشركا إنه لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .. يريد بذلك استحالة إيمان عمر .

فماذا كانت النتيجة ؟

أسلم عمر رضى الله عنه .. أما هذا الرجل الذى قال ذلك .. فقد مات بالحبشة مرتدا والعياذ بالله تعالى .

إنه فتى مغرور .. وإن بدا فى صورة الغيور !

وهو أخطر على الدعوة من أعدائها .. حين يحقق غرض هؤلاء الأعداء بمثل هذا الانفعال الطائش .. والذى يمثل حجر عثرة فى طريق كل قادم إلي الإسلام .. مقبل عليه .

وهو بمثل هذا المنطق الغشوم مجاف للسنة .. التى يدعى الاستمساك بها .

هذه السنة التى كان من سماتها الأمل المتجدد فى أن يدخل الطاغون فى دين الله بمثل دعوته ﷺ :

اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين

وقد أعز الله الإسلام فعلا .. بعمر بن الخطاب رضى الله عنه رغم أنف هذا الفتى .. الغيور .. المغرور !

وبقى الموقف برمته درسا للدعاه ليستوعبوا مغزاه :

(أن نحسن التعبير عن أنفسنا . حتى يستطيع الناس أن يعرفوا حقيقة دعوتنا .. حتى لاتلتبس بدعوات الآخرين)

وليس من حسن التعبير أن نصد الراغبين فى دعوتنا .. بمثل هذا الهجوم على من ليس معنا .

وليس بالضرورة أن يكون من ليس معنا .. علينا .. بل لعله أن يكون راغبا فينا .. مشوقا إلينا .. لكنه مقيد بأعراف وتقاليد .

فلتكن رغبته تلك البذرة التى نتعهدها .. لتكون على نفس الخط الذى رسمه ربنا تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ [1].

(١) الفتح ٢٩.

من صفات المنافقين

فى سورة البقرة .. يذكر الله تعالى المنافقين بصفاتهم .. لا بذواتهم :

وذلك قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (١)

ولكن ما مغزى ذلك ؟ لماذا يذكر تعالى المنافقين بصفاتهم .. لا بأسمائهم

يقول المفسرون :

مغزاه : أن الأسماء لاتهم ..حتى لا يظن المسلم أن النفاق محصور فى هذه الأسماء المعينة والتى تذكر نصا ..

وما يترتب على ذلك من ظنه أن هؤلاء مدرسة النفاق

أما هو .. فبنجوة منه !

الأمر الذى قد يسلكه فى زمرتهم .. ومن حيث لا يحتسب ..

فكان من رحمته تعالى أن يذكرهم بصفاتهم .. حتى يتحسس المسلم نفسه .. قبل أن تسرى إليه علة النفاق بالعدوى ..

وإلا فإن من اتصف بواحدة من صفات المنافقين .. فإن فيه من النفاق بقدرها .

ولاحظ قوله تعالى : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾

ولم يقل سبحانه : وما آمنوا ..

لأن الصيغة الثانية .. تعنى : نفى إيمانهم ..

أما الصيغة المختارة .. وهى الأولى ..فهى الأولى .. لماذا ؟

---

(١) سورة البقرة ٨ - ١٠ .

****

لأنها تعنى إخراجهم من جماعة المؤمنين بالمرة !

فلاحق لهم فى المواطنة .. فهم بالتعبير العصرى : معزولون سياسيا !

ومن هنا تبين لنا قيمة الكلمة بذاتها .. وبصياغتها فى الكشف عن مكنونات الأنفس .. والتعبير عنها أصدق تعبير ..

إن قيمة الكلمة القرآنية ليست فى أنها حروف مصفوفة ..

لكن قيمتها العظمى فى موقعها من الجملة :

هل هى متناسقة مع جملتها ؟

ممهدة لما بعدها ؟

ثم كيف كان الختام ؟

هل جاءت الخاتمة بإيقاعها معبرة عن أسرار النفس فتم بها المعنى كمالا وجمالا ؟

وإذا كانت الكلمة كذلك :

فقد صارت الجملة مرآة تنعكس عليها ملامح النفس .. وتطلعاتها بلا تزويق..

وكذلك .. كانت كلمات ربى .. سبحانه وتعالى .

وكذلك كانت السنة أيضا .. وهى المبينة للقرآن ...:

فقد علمتنا السنة :

أن أمارات المنافق أنه :

إذا حدث .. كذب ..

وإذا ائتمن .. خان ..

وإذا وعد .. أخلف ..

ولقد جاء تعبير السنة عن نفسية المنافق مطابقا لمنهج القرآن الكريم فى دقة التصوير وبلاغة التعبير :

فنحن نعلم أن الإنسان عبارة عن :

أ - نية .

ب- وقول .

ج- ثم عمل .

والمنافق محروم من هذه المقومات جميعا :

فهو مدخول النية : خائن .. غادر .. لأنه ينوى خلف الوعد فى اللحظة التى يؤكد وفاءه بأغلظ الأيمان .

ثم من ناحية القول .. كذاب أشر ..

وبالنسبة للعمل .. فلا عمل هناك .. وإنما هو : قشرة هشة تحجب خراب باطنه ..

وتأمل من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم عندما غطى ببيانه كل هذه الجوانب .. حين وصف المنافق .. بالكذب .. والخيانة .. والتجرد من حلية العمل الجاد المقبول .

ومن رحمة الله تعالى- مع عظم جرم المنافق -أن يبقى خط الرجعة مفتوحا.

فلم يشأ سبحانه تحديد أسمائهم وأشخاصهم على الملأ ..

متيحا بهذا فرصة العودة الراشدة إلى الصف المؤمن ..

ولكنه تعالى يهيئ المستقر المستوعب لكل أسمائهم جميعا .. حتى يكونوا من القيادة فى نقطة الضوء .. وذلك بتمكين حذيفة رضى الله عنه من معرفتهم بسيماهم .. ليظل سجلا حافظا لهؤلاء الخونة .. حتى إذا حاولت الأفعى أن تطل برأسها من جحرها .. كانت الأمة لها بالمرصاد .

أعداء أنفسهم :

والآية الثانية تصفهم بأنهم يخادعون الله :

وقد آثارت مشكلة هى :

كيف يقال هذا .. ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح ..

لأن العليم الذى لا يخفى عليه خافية لا يخدع .

والحكيم الحليم الذى لا يفعل القبيح لا يخدع ..

وفيما يتعلق بالمؤمنين .. فإنه إذا جاز أن يخدعوا كما قال ذو الرمة

تلك الفتاة التى علقها عرضا ∴ إن الحليم وذا الإسلام يختلب

هؤلاء المؤمنون .. لا يجوز أن يخدعوا .

(والجواب : كما قال النيسابورى :

صورة صنع المنافقين مع الله : حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون

وصورة صنع الله معهم : حيث أمر بإجراء حكم المسلمين عليهم .. وهم عنده أهل الدرك الأسفل من النار .. صورة صنع الخادع .

وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم :

حيث امتثلوا لأمر الله فيهم . فأجروا أحكامه عليهم) (١)

ومهما يكن من أمر فإنك أمام هذا النص على ما يقول صاحب الظلال :

(أمام حقيقة كبيرة .. وأمام تفضل من الله كريم :

تلك الحقيقة هى التى يؤكدها القرآن دائما ويقررها :

وهى حقيقة الصلة بين الله تعالى والمؤمنين :

إنه يجعل صفهم صفه.. وأمرهم أمره . وشأنهم شأنه :

---

(١) النيسابورى ١٣٣.

يضمهم سبحانه إليه .. ويأخذهم فى كنفه .. ويجعل عدوهم عدوه .

وما يوجه إليهم من مكر موجها إليه سبحانه . وهذا هو التفضل العلوى الكريم .

التفضل الذى يرفع مقام المؤمنين إلى هذا المستوى السامق ..

وهو فى نفس الوقت تهديد رعيب للذين يريدون خداع المؤمنين والمكر بهم)

وإذا كان القرآن قد حدد صفات المنافقين

فقد كشفت لنا أعمالهم هذه الصفات

وهذا ما نحاول تتبعه من خلال غزوة أحد .

خلاف
لا يفسد للمعركة قضية

بين يدى غـزوة أحد .. اختلف الرأى حول ما إذا كـان الأفـضل بقاء المسلمين داخل المدينة .. أو أن يخرجوا إلى العدو المتربص هناك بعيدا ؟

وكان رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبقوا فى المدينة .. بينما عارضه الشباب المشوق إلى لقاء العدو .. بعد أن فاته ذلك اللقاء فى غزوة بدر ..

و« لم يزل الناس برسول الله صلى الله عليـه وسلم الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم .. حتى دخل بيته فلبس لأمته » استعدادا للخروج ..

وكانت موافقته صلى الله عليه وسلم تقديرا للدوافع المخلصة التى تقف وراء الموقف المتشدد ..

لذا كـان من واجبه كقائد للمعـركة أن يأخذ الرأى فى أمر يتعلق بمستقبل الأمة.. فإن من حق القاعدة أن تقول رأيها فى حدود مصلحة المعركة.. وأن يكون لهـذا الرأى وزنه مـا دام محكوما بالمنطق السليم البـاحث عن حل أوفق.. ونصر قريب..

إن الرغبة فى الجهاد متفق عليها .. ولا خلاف أيضا فى الغاية من الجهاد إذا كانت إعلاء كلمة الله وضرب المعتدين عليها ..

وكل خلاف بعد ذلك لايفسد للمعركة قضية .. بل هو ظاهرة صحية تقترب بالأمة من النصر المأمول فى نهاية المطاف ..

وإذا كان القائد يستشير فى اختيار أنسب المواقع لمواجهة العدو ..

فيفتح صدره لكل رأى لا يسير فى اتجاه رأيه ..

فإن هناك أمورا أخرى تبقى للقيـادة أولوية البت فيـها من حيث ارتباطها بمستقبل المعركة ذاتها .. ومن حيث صلتها بمعنى الكتمان الذى يصبح عنصرا هاما

للنصر .. كتحديد ساعة الصفر مثلا .. تلك التى تعطى عندها إشارة البدء بالقتال..

كما أن توزيع الأدوار منوط بها أيضا فى حدود الثقة الممنوحة لها من قبل الأمة كلها ..

أى أن الخلاف المسموح به هناك .. ينبغى أن يفسح الطريق هنا للقيادة التى تتحمل مسئوليتها كاملة .. ساعة البدء ..وساعة اختيار مواقع الرجال .. توحيدا للرأى .. وضمانا للتماسك الضرورى فى لحظات عصيبة لا تسمح إلا برأى مسئول واحد .. يدير دفة المعركة .. بقدر ما يفوت على الأعداء أملهم فى خلاف يحقق لهم النصر فى غفلة الزمن كما يقولون .

وقد قص القرآن علينا كيف تولى الرسول بنفسه توزيع المواقع ..

وروى لنا التاريخ حسن اختياره للسيف المناسب فى يد الرجل المناسب ..

وذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾

وفيما ذكره كتاب السير من أحداث أحد :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فقام إليه رجال فأمسكه عنهم .

حتى قام إليه أبو دجانة فقال :

وما حقه يا رسول الله ؟ قال :

أن تضرب العدو حتى ينحنى .. قال :

أنا آخذه يارسول الله بحقه .. فأعطاه إياه ..[1]

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٢٨ ، وأحمد فى المسند ١٢٣/٣ ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٢٣٠.

وقال الزبير بن العوام :

وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعنيه.. وأعطاه أبا دجانة .. وأنا ابن صفية .. عمته ..ومن قريش !!

وقد قمت إليه فسألته إياه قبله .. فأعطاه إياه وتركنى .

والله لأنظرن ما يصنع ..

فأتبعته .. فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه .

فقالت الأنصار :

أخرج أبو دجانة عصابة الموت !

فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ∴ ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر بالكبول ∴ اضرب بسيف الله والرسول

وإذا كان الحماس المتقد قد أنسى ابن العوام حق غيره فى أخذ السيف .. فإن الصورة التى تم الأمر بها **تبقى مع الأيام تعلم الحياة دروسا بليغة نذكرها اليوم .. بينما يعيد التاريخ نفسه ..**

فاستفهام الرسول صلى الله عليه وسلم يفتح المجال أمام كل واثق بقدرته على الاستماتة حتى آخر لحظة فى حياة العدو الذى لا يتركه حتى تسقط رأسه !

وفى سبيل هذه الغاية .. لا مكان لقرابة الدم .. أو عصبية القبيلة ..

ولو كانت هى قريشا على جلال قدرها .. فالصوت العالى هو صوت المعركة دائما .. هذه المعركة التى تفرض وضع المقاتل المناسب فى المكان المناسب دائما !

وإن لم يكن هذا المقاتل فى منطقة الضوء .. فإن مواهبه الذاتية .. وإن خبرته فى صناعة الحرب هى وحدها التى ترشحه للنزال بعيدا عن كل عامل خارجى يتعلق بالقبيلة .. ويتجاهل قدرته وحدها على القتال ..

وقد صدق أبو دجانة فى وعده .. وكان عند حسن ظن القائد به ..

فقاتل قتال الأبطال .. ورغم أنه واحد من جنود معركة لم ينتصر فيها المسلمون .. لكن اسمه ما زال باقيا ..كعنوان للصمود والتحدى بقوة الحق .. وسند الإيمان .. الذى يصنع الرجال القادرين على خوض الغمرات .. واقتحام العقبة بإرادة لا تؤثر فيها الهزيمة أبدا ..

****

بعد هزيمة أحد :

كيف أعاد القرآن
بناء الجبهة الداخلية

فى أعقاب الهزيمة العسكرية لأمة من الأمم .. تحس النفوس بمرارة تعكر عليها صفو الحياة .. وبالتالى يرتجف ميزان الأشياء فى يدها الراعشة .. فيختل حكمها على الناس والأحداث ..

وفى هذه اللحظات الحرجة تطل من الرءوس أشباح من الظنون والأوهام .. قد تأخذ الناس فى دوامتها بعيدا بعيدا .. فى رحلة مرهقة يعود منها الإنسان محطم الأعصاب .. مثقلا بهموم فوق ما يطيق ..

وعند ذلك .. ينتهزها العدو الوافد فرصة مواتية ليضرب ضربته الثانية ! فى وقت تتهيأ فيه النفوس لتصديق أى شئ .. والالتفاف حول أى ناعق . فاخترع الشائعات .. وافترى الأكاذيب ..حتى إذا أفلح العدو فى حربه النفسية هذه .. فأسلمت له النفوس زمامها وأسلست قيادها .. كان ذلك فوزا آخر يعزز به انتصاره العسكرى .. وضمن لنفسه البقاء على أنقاض أمة غير جديرة بالحياة ..

أما إذا صحت الأمة على أضواء من النكسة تكشف أمامها من معالم الحياة مالم تكن تراه فواصلت المسير .. واحتفظت بإرادتها ومعنوياتها صلبة تتحدى بها العدو .. مستعلية بقيمها على شائعاته ودساسه .. فإنها تفوت عليه غرضه الأساسى من عدوانه .. ويصبح احتلاله جزءا من الوطن أمرا يمكن القضاء عليه .

وفى غزوة أحد مصداق لما نقول :

فقد انتصر المسلمون فى الجولة الأولى .. ونسى الرماة توجيه الرسول بالثبات فى مواقعهم فأسرعوا ليأخذوا نصيبهم من الغنائم .. وكان ما توقعه الرسول القائد .. وهزم المسلمون ..

وانتهزها العدو فرصة للضغط على المسلمين من الوجهة النفسية .. وبدأ يضرب ضربته بينما الحديد ساخن !

وقد استهدفت حملته المسلمين والرسول معا :

وفيما يتعلق بالمسلمين فقد أشاعوا أن محمدا قد قتل .. لينفرط العقد بعد أن ضاعت واسطته !

وقالوا للمسلمين :

« ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم .. ولو كان محمد نبيا لما قتل » ؟!

وحول هذا المعنى تراكضت الشائعات وكثر الحديث ابتغاء الفتنة وتشكيك المسلمين فى سلامته ما يدعوهم إليه محمد عليه السلام .. ولوحدث ذلك يكون قد تحقق للمشركين أغلى أمل فى حياتهم .. إطفاء نور الله :

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾

ويبـدو أن هذه **الحملة النفسية** قد حققت بعض أغراضها لدى بعض ضعاف النفوس فعادوا إلى الكفر ..

بل إن المسلمين المخلصين أنفسهم لم يكونوا بنجوة من هذا التأثر إلى حد ما :

فقد شق عليهم الأمر عندما دعاهم الرسول إلى استئناف القتال مع ما أصابهم من الجراح ..

وقد كانت اشائعة وفاة الرسول رد فعل عنيف لديهم إلى حد أفقدهم صوابهم وخلخلت صفوفهم .. ونزلت الآية تتلى لتحسم الموقف .. وتتعقب هذه الخواطر المغرضة لتحمى المسلمين من شرها بتقرير مبادئ راسخة تثبت الأيدى من جديد على حبل الله .. والأقدام على طريقه المستقيم :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين .

وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون .

وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (١)

إن عظمة الجيش لا تقاس بإحرازه نصرا ما .. بقدر ما تقاس بمبادئه التى يدافع عنها .. فما دامت هذه المبادئ سليمة .. بقيت فرص الفوز مؤكدة فى مستقبل الأيام .. وفى حراسة هذه المبادئ القوية ..

فلا مجال للإغراق فى الحزن على دماء سالت فوق الرمال .. فتلك سنة الدعوات منذ فجر التاريخ ..

ولا داعى للإحساس بالهوان ما دمتم قد خرجتم من المعركة بنفوسكم سليمة .. وفى حالتى النصر والهزيمة أنتم الأعلون دائما بعقيدتكم التى صاغت هذه النفوس وأمسكت بها أن تزول فى معمعان المعركة الطحون ..

ولحساب من هذا الدمع المسكوب فى حين أنكم قد سبقتم بالنصر وقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ؟!

وتلك سنة الحيـــاة : يوم لك ويوم عليك .. ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .. والذين يسعون للجنة سعيها لا يولدون وفى أفواههم ملاعق الذهب !

لكن الطريق إليها محفوف بالمكاره .. مفروش بالأشواك .. وعلى قدمين من الجهاد المبرور والصبر الجميل .. تصلون إلى هناك .

على أن معركة أحد لم تكن مفاجأة لكم .. فقد جاءت تحقيقا لأمنية غالية جاشت بها نفوسكم حين قلتم :

« ليت لنا يوما كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه »

---

(١) آل عمران : ١٣٩ - ١٤٤ .

وهأنتم اليوم تواجهون الموت .. فلم تجزعون ؟

ألأن محمدا قد مات ؟

على أى حال لم يمت محمد القائد .. والواقع الماثل يكذب شائعة العدو ..

ولو فرض ومات .. فأية غرابة فى ذلك ؟!! إنه واحد من الرسل الماضين تجوز عليه أعراضهم : يموت كما ماتوا .. وتبقى العقيدة من بعده ملتقى المؤمنين ومستراد آمالهم ..

ويمضى السياق القرآنى فيعرض عليهم صورة من جهاد إخوة لهم سبقوهم بالإيمان تحت قيادة أنبيائهم .. وكيف كابروا مغارم القتال وتسلحوا بالنصر فانتصروا.. ولم تجر على لسان واحد منهم كلمة يائسة ..

ولكنهم فى لحظات الهزيمة يعودون إلى أنفسهم يفتشون فيها عن أسباب هذه الهزيمة :

فإيمانهم بأنبيائهم ومبادئهم كما هو .. ولا علاقة للنكسة بهما وليس الأمر كما يحاول المنافقون اليوم أن يربطوا هزيمتهم بالتشكيك فى نبوة محمد وصدق ما يدعو إليه ..

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (١)

وبهذا التوجيه القرآنى السديد .. عاد إلى المسلمين رشدهم الغارب .. وأفاقت نفوسهم من هول الصدمة على بريق هذه الحقائق الكبرى .. التى تتراءى الآن فوق مرآة قلوبهم .. ولكن التحالف الباغى بين المشركين فى مكة والمنافقين بالمدينة يرمى بآخر ما فى جعبته من سهام :

---

(١) آل عمران : ١٤٧ - ١٤٨ .

فبعد أن ينفث سمومه فى صفوف الجبهة الداخلية بغية تفتيتها .. وبعد أن نزلت الآيات السابقة من سورة آل عمران فربطت على قلوبهم .. يسير المشركون وفدا مكونا من : سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور السلمى فى محاولة يائسة لمساومة الرسول على عقيدته !

وتأخذ المؤامرة حدودها الحقيقية فينزلون ضيوفا على رأس النفاق عبد الله بن أبى .. ويعطيهم الرسول عليه السلام الأمان أن يقولوا ما يشاءون ..

ويتفق الطرفان على أن يواجهوا الرسول قائلين :

« ارفض ذكر آلهتنا : اللات والعزى ومناة .. وقل إن لها شفاعة »

ورفض الرسول اقتراحهم بطبيعة الحال .. لكنها كانت لحظة حرجة فى حياته .. تلك التى يتجرأ فيها التحالف الجديد محاولا فرض إرادته على المسلمين فى ظل انتصار مزيف .. زاعمين أن غلبتهم تلك الخاطفة ربما سلبت من المسلمين الاختيار .. فيضطرون إلى الاعتراف بهم كأمة .. والاعتراف أيضا بأوهامهم كدين ؟!

وفات هؤلاء الواهمين أن جبريل قد سبقهم إلى هناك .. إلى المدينة بالآيات السابقة ..

وإن الجبهة لتبدو اليوم أشد قوة وأصلب عودا ..

وهذا عمر بن الخطاب -باسم المسلمين الذين استعادوا قوتهم النفسية فى أعقاب النكسة - ينهض مستأذنا الرسول فى ضرب أعناقهم ..

ويجئ جبريل مرة أخرى بهذه الآيات فى مستهل سورة الأحزاب -وقد نزلت بعد آل عمران - ليعالج الموقف :

﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعلمون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ (١)

---

(١) مفتتح سورة الأحزاب .

وتنزل هذه الآيات فى أوانها آمرة الجنود فى شخص قائدهم بالتقوى .. بالخوف من الله وحده .. لا من هذا التحالف البادى بين قوى الشر هنا وهناك ..

اتق الله تقوى تمنعك من طاعة المنافقين والكافرين والنزول على رأيهم أو الاعتراف بهم .. واتبع ما يوحى إليك من ربك متوكلا عليه وهو كافيك شرهم وناصرك عليهم .

ومعنى ذلك أن تكون للمسلمين شخصية مستقلة بعيدا عن مكر المنافقين وعدوان المشركين ..

فلتستمر فى سيرها على سواء الصراط .. تتلقى التوجيه من ربها .. مستلهمة وحيه الكريم .. وهو معهم بالنصر والتأييد .

وبعد :

فما أشبه الليلة بالبارحة !:

إن التحالف الباغى بين المشركين واليهود ينحدر من الأسلاف إلى الأخلاف فينتصر علينا اليوم فى معركة خاطفة ..

وها هى ذى أبواق دعايته تعلنها من كل فج حربا نفسية تعزز بها نصرها العسكرى ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .. قاتلهم الله ! ﴾

وما بد من أن نعود إلى تاريخنا نستلهمه العبرة .. إلى غزوة أحد .. لنرى فى حوادثها المتلاحقة صورة لما يجب أن نفعله الآن لنحول الهزيمة إلى انتصار :

وإذا كان من المقرر فى مجال الحرب : إذا انتصر عدوك فلا تترك له الميدان خاليا يسرح فيه كما يشاء .. فإن من المقرر أيضا : إذا انتصر عدوك فلا تترك له قلبك ليبذر فيه بذور الضعف والوهن ..

ذلك بأن تحرير الأرض المحتلة أمر يسير المنال .. لكن تحرير الإرادة بعد احتلالها أمر فيه نظر !

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

الإيمان
بين النظر والتطبيق

يقول تعالى : ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ..
ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾

فى معرض الحديث عن إبراهيم الذى آتاه الله الحجة على قومه . فألزمهم بها كلمة الإيمان .. تشير الآية إلى أن هذه الحجة توفيق من الله سبحانه وتعالى .. هدى إليه إبراهيم ومن قبله نوحا عليهما السلام .. ومن سار على دربهما من الأنبياء والمرسلين ..

وإذا كان هؤلاء الرواد .. قد استجمعوا بالإيمان كل ما تفرق فى قلوب الناس من خير وبر ..

فإنه فى اللحظة التى يتخلى عنهم ذلك الإيمان .. يزايلهم كل ما حصلوه من تلكم الفضائل :

﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون ﴾

إن ذهاب الإيمان من قلب إنسان لا « يذهب » بفضائله لتعيش هناك بعيدا عنه .. بل إنه ليحبطها .. فلا يبقى لها حتى فى الخيال وجود .. من حيث كان الإيمان إكسير الحياة التى يجمع شتات المرء .. ويكثف قواه لتصبح شيئا مذكورا ..

إننى أحاول أن أتأمل معك - أيها القارئ العزيز - ما وصف الله به هؤلاء الأنبياء من فضائل لا يكتسبها المرء إلا بالمران الطويل والصبر الجميل .. ثم أتخيل معك أيضا - كيف يتهاوى ذلك النبأ الشامخ إذا ما تخلى عنه أساسه :

يقول الحق تبارك وتعالي عن هؤلاء : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾

﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا

لهم لسان صدق عليا ﴾ و ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه مخلصا وكان رسولا نبياوناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ﴾

﴿ واذكر فى الكتاب اسماعيل .

إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة

وكان عند ربه مرضيا ﴾

﴿ واذكر فى الكتاب إدريس :

إنه كان صديقا نبيا ﴾

﴿ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس : كل من الصالحين .

واسماعيل واليسع ويونس ولوطا : وكلا فضلنا على العالمين ﴾

انظروا :

كل هذه الخصائص التى صار بها الأنبياء منارات هدى ..

تذوب كلها إذا ما أجدبت التربة من تحتها .. إذا ماجف نبع اليقين ؟!

هل يمكن بعد ذلك أن نتصور الإيمان قضية نظرية تعيش فى العقل باردة .. أو نتخيلها مجرد مبدأ يرسب فى قاع النفس فلا يحرك ساكنا ؟

إن فقدان مثل هذه القضية الأثرية .. أو هذا المبدأ الجاف لا يترك فى الأعماق فراغا يتهاوى على إثره البناء ..

ولكن الإيمان عقيدة تتصل بالعقل المفكر .. والقلب الشاعر .. والإرادة الحرة..

العقل الذى يستحضر الحق تبارك وتعالى بالدليل .. ومن ورائه القلب يمنحه أشواقه .. لتهتز الجوارح بعد ذلك بالعمل الصالح ..

فإذا كنا نقيم الدولة الآن على الإيمان - وإنا لصادقون - فمعنى ذلك أننا

نربى **عناصر هذا الإيمان التى هى:**

العقل .. والقلب .. والإرادة ..

نربى العقل بالعلم المفيد الهادف ..

ونربط القلب بكل ما فى الكون من جمال ..لا يتبدى فقط لدى الزهرة اليانعة أو الغصن المورق .. بل إن جمال الحقائق الكونية التى تخدم الفرد والمجتمع أجدى وأقوم ..

وإن الإبقاء على الإرادة الإنسانية صلبة لا تلين خطوة هامة على طريق الإيمان الصحيح ..

وبهذا البناء النفسى المتكامل يوجد الإيمان بالله عزوجل ..

وبهذا الإيمان تحقق المعجزات .. وتصنع المستحيل ..

إن أعداء الإيمان لا يقولون لك : لا تؤمن .. لأنهم يعلمون أن ذلك مستحيل.. وقد يئس الشيطان أن يعبد غير الله فى الأرض ..

ولكنهم - ولكى تكون القفزة محكمة - يعودون خطوة إلى الوراء .. فيحاربون فيك العقل بنظريات براقة ..ويضعفون فى صدرك القلب حتى يموت إحساسه بأمته ومصيرها ..

ويحاولون أن يضعفوا الإرادة بحرب التشكيك فى قدرتك الذاتية على النصر..

فإذا ما استطعنا أن نعصم هذا العقل بالعلم الصحيح ..

وأن نصون القلب بوصله بالله سبحانه .. وأن نحرر الإرادة من كل تبعية لما يرجف به المغرضون ..

إذا ما حققنا ذلك .. اقتربنا من الله سبحانه الذى يشد من أزرنا ويبارك على طريق النصر خطانا.

ولقد استجاب الصحابة رضوان الله عليهم إلى هذا النداء طائعين ..

وساحوا فى الأرض حداة للخير ودعاة إلى الله حين صانوا مبادئهم من رخاوة النعيم .. واخشوشنوا لأن النعمة لا تدوم .

لكن السؤال الذى يبحث عن جواب :

كيف نقلهم الإسلام هذه النقلة البعيدة ؟

وفى جواب هذا السؤال بنيان المنهج الإسلامى فى تربية النفوس :

هذا المنهج الفريد الذى يعترف بنزعة الإنسان إلى الترف .. لكنه بدل أن يصادم هذه الرغبة .. بزاملها .. معترفا بها .. حتى يصل بها فى النهاية إلى ما يريد من خير وبر ..

وكمثال لهذا نقرأ قوله تعالى :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ (١)

إن المال .. والبنين زينة .. ما فى ذلك شك ..

لكن الإنسان لم يخلق ليعب من نعيم الحياة عبا ينسى معه رسالته ..

إنه مطالب أن يشد الرحال إلى الله فعنده حسن المآب ..

وإذا كان فى الاستمتاع بطيبات الحياة نفع .. فإن هناك نفعا أجدى وأبقى أعده الله للذين اتقوا .. أى الذين وقفوا عند حدود مبادئهم .. وصدقوا فى ولاتهم لها ..

وأداروا ظهورهم لكل متعة تخفف من هذا الولاء لها .

---

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

إنهم :

الذين يذكرون الله فى العبادة ..

ويذكرون الناس فيبذلون لهم راضين بشظف العيش ..

والذين لم يعطوا هذه الجسوم ما تصبو إليه من نعيم فراضها على السهر وقوة التحمل .. لتكون بعد ذلك أقوى على النضال فى يوم النزال .

إن هذه تذكرة .. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا .

وبالله التوفيق ،،

الفهــــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
• مقدمة	أ - ب
* **تمهيد** : الإنسان بين نظرتين	١-١٥
الفصل الأول	١٦-١٢٤
آيات القرآن ترسم سعادة الإنسان	
* الخطوة الأولى على طريق السعادة	١٨
* خطوة آخرى على الطريق	٢٧
* من بركات القرآن	٣٢
* من بركات التقوى	٣٧
* الرحمة المهداة	٤٤
* من واقعية الإسلام	٤٩
* أولادنا : بين التفوق والتوفيق	٥٤
* الحصن الآمن	٥٧
* **من خصائص المؤمنين :**	٦٢
- نؤمن بحكمته فنرضى بقسمته	٦٦
- رحماء بينهم	٨١
- من ملامح المنهج الإسلامى فى معاملة الناس ..	٩٣
- وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب	٩٨
- حسن الظن بالله تعالى ، وبالناس	١٠٦
- المحافظة على البيئة	١٠٩
- أهمية الإخلاص	١١٢
- الصبر	١١٨
- الإحسان إلى الفقير	١٢٣

الموضــــوع	رقم الصفحة
الفصل الثانى	١٢٥-٢٥٦
الإنسان .. فى هدى القرآن	
* بين النجاة والخسران	١٢٧
* من الأدلة على وجود الله تعالى	١٣٢
* دليل الخلق	١٤٢
* دليل الرزق	١٤٥
* من آيات الله فى الأرض	١٤٨
* أم من يجيب المضطر إذا دعاه !!!	١٥٢
* إن ربك لبالمرصاد	١٦٤
* الزاد الباقى	١٧٣
* وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم !!	١٨٧
* من توجيهات القرآن	١٩٥
* أهميـة العلم	١٩٩
* من دروس التربية	٢٠٤
* نفسك : إن لم تشغلها بالحق .. شغلتك بالباطل	٢١١
* القرآن وحرية الإنسان	٢١٤
* آمالنا : بين الواقع والمتوقع	٢١٨
* غوث اللهيف	٢٢٣
* رجال فوق كيد الشيطان	٢٢٦
* بالأخلاق لابصخب الأسواق	٢٢٨
* الإنسان فى الآخرة	٢٣١
* ضرورة اليـقظة	٢٣٤
* من صفات المنافقين	٢٣٧

الموضـــوع	رقم الصفحة
* خلاف لايفسد للمعركة قضية	٢٤٢
* بعد هزيمة أحد: كيف أعاد القرآن بناء الجبهة الداخلية ؟	٢٤٦
* الإيمان : بين النظر والتطبيق	٢٥٢
*** الفهرس**	٢٥٧-٢٥٩

ا